دكتور يوسف القرضاوى
نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام
(١)
فى ضوء شرح مفصل للأصول العشرين
للإمام الشهيد حسن البنا
شمول الإسلام
الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة . تليفون ٣٩١٧٤٧٠
Bibliotheca Alexandrina

دكتور يوسف القرضاوى

نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام

في ضوء شرح علمى مفصّل للأصول العشرين

للإمام الشهيد حسن البنا

الأصل الأول

شمول الإسلام

الناشر

مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية . عابدين

القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الثانية

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

من الدستور الإلٰهى

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

(آل عمران : ١٠٤ - ١٠٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

اللّهم ربنا لك الحمد ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شئ بعد ، وصلاة وسلاماً على صفوتك من خلقك ، وخاتم أنبيائك ورسلك ، سيدنا وإمامنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، ومَن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

أما بعد ..

فقد كان من قدر اللّه تعالى وفضله علىّ ، أن هيأ لى الاستماع إلى الإمام الشهيد حسن البنا ، وأنا طالب فى السنة الأولى من المرحلة الابتدائية بمعهد طنطا الأزهرى الدينى ، وذلك عام ١٩٤١ وقد تجاوزت الرابعة عشرة من عمرى.

كان « حسن البنا » يتحدث فى مناسبة الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم . ولأول مرة فى حياتى أسمع - منذ عقلت ووعيت - كلاماً جديداً عن الهجرة الشريفة وما يُستخلص منها من دروس وعبَر ، فطالما سمعتُ فى أوائل المحرَّم من كل سنة من الوعَّاظ والخطباء فى قريتنا ، قصة الهجرة وأحداثها ، خصوصاً ما يتعلق بقصة « الغار » ونسج العنكبوت وبيض الحمام .. إلخ . ولكن « حسن البنا » تحدَّث عن الهجرة باعتبارها حداً فاصلاً بين عهدين : عهد تربية الفرد فى مكة ، وعهد إقامة الدولة فى المدينة ، وخصائص

كل منهما ، وكيف نستفيد نحن فى هذه الذكرى ، لنعمل على تكوين الفرد المسلم ، وصولاً إلى بناء المجتمع والدولة .

تركت كلمات « حسن البنا » أثرها فى عقلى وقلبى ، وظللت أترقب وصوله إلى مدينة طنطا (عاصمة مديرية الغربية) فى المناسبات المختلفة ، لأهرول إليه ، وأستمع إلى حديثه بشغف ولهفة ، وإن كنت لم أدر بعد ما السبيل إلى الانخراط فى جماعته ، والانضمام إلى ركب دعوته ؟

حتى كنت فى السنة الرابعة الابتدائية ، ودعيتُ من قِبَلِ قسم الطلأب فى شُعبة الإخوان بطنطا للمشاركة فى النشاط الثقافى بإلقاء قصيدة شِعرية فى موضوع إسلامى أختاره .

واستجبتُ للدعوة مستبشراً ، واعتليتُ المنصة لأول مرة فى مركز الإخوان لألقى قصيدة أنشأتها بهذه المناسبة ، لم أعد أذكر إلا مطلعها :

قلبــى يحس برحمــة تتــدفــق ويرى الملائك حولنا قد أحدقوا !

واعتُبِرتُ من ذلك اليوم واحداً من طلأب الإخوان المسلمين ، ثم بعد ذلك أحد أعضاء قسم نشر الدعوة ، الذى يشرف عليه الداعية الكبير أستاذنا البهى الخولى رحمه الله .

كان الإمام حسن البنا فى القاهرة ، وكنت فى طنطا حيث أدرس في معهدها الدينى قريباً من قريتى .. ولهذا كانت فرصة لقائى بالإمام البنا محدودة . وهى مرهونة بزيارته لطنطا أو للمدن القريبة منها ، أو المرتبطة بها مثل المحلة أو كفر الزيات أو دسوق .

وكم كنتِ معلّق القلب بذلك اليوم الذى أفرغ فيه من دراستى الثانوية بطنطا ، وألتحق بجامعة الأزهر بالقاهرة ، حيث تتاح لى فرصة اللقاء والملازمة والتتلمذ المباشر للإمام البنا ولكن القَدَر كان يخبئ شيئاً ادخره للرجل الكبير ، وهو الشهادة فى سبيل الله .

وما كان أفجعه من نبأ ، نزل علينا كوقع الصاعقة ، حين قرأناه فى الصحف، يوم ترحيلنا من سجن قسم أول طنطا إلى معتقل « هايكستبْ » ومنه إلى معتقل « الطور » فى ١٩٤٩/٢/١٣ ! نبأ اغتيال الشيخ البنا ، هدية للملك فاروق فى يوم عيد ميلاده !

وهكذا قدَّرتُ شيئاً ، وقدَّر اللّه شيئاً آخر ، وحُرِمتُ التتلمذ المباشر على إمام الدعوة ، ولم يبق أمامى إلا التتلمذ على أفكاره المبثوثة فى رسائله ومقالاته ، وفى تلامذته وأصحابه الذين عايشوه وتلّقوا عنه العلم والعمل ، والفكر والسلوك .

والحق إنى لم أعجب بشخصية حيَّة لقيتها وتأثرتُ بها ، كما أعجبت بشخصية الشهيد « حسن البنا » الذى آتاه اللّه من المواهب والملكات ما تفرَّق فى عدد من الشخصيات ، فقد جمع بين العلم والتربية ، ومزج بين الفكر والحركة ، وربط بين الدين والسياسة ، ووصل ما بين الروحانية والجهاد ، وكان النموذج الحى للرجل القرآنى ، والمعلِّم الربانى ، والمجاهد الإسلامى ، والداعية العصرى ، والمنظِّم الحركى ، والمناضل السياسى ، والمصلح الاجتماعى .

ولم يكن هذا شأنى وحدى ، فإن كل مَن عرف حسن البنا أُعجب به إعجاباً كبيراً ، وكلما زادت معرفته به ، بالاختلاط والمعاشرة ازداد إعجاباً به ، وحباً له ، كما لمستُ ذلك من كثيرين من شيوخ الدعوة وشبابها : البهى الخولى ، ومحمد الغزالى ، وسـيد سابق ، وعبد العزيز كامل ، وفريد عبد الخالق ، وعمر التلمسانى ، ومصطفى مشهور ، وعباس السيسى .. وغيرهم .

ومَن لم يعرف حسن البنا عن طريق المعايشة والمخالطة عرفه عن طريق أثره الفكرى والتربوى والتنظيمى ، وهذا ما جعل الشهيد سيد قطب يصفه بـ « عبقرية البناء » حين شاهد هذه المجموعة الهائلة من الترتيبات والأبنية والنُّظم التربوية

والحركية التى ابتكرها هذا الرجل « الملهم الموهوب » كما سماه المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمسانى رحمه الله .

والذى يهمنا هنا أنى وعيتُ ما كتبه الشهيد البنا ، وقرأتُ تقريباً كل ما عثرتُ عليه من تراثه ، وإن كان مما يؤسف له أن هذا التراث إلى اليوم لم يُنشر فى صورة « مجموعة أعمال كاملة » كما حدث ذلك لأمثال جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ رفاعة الطهطاوى .. وغيرهم (١) .

وكان مما شدّنى وبهرنى من تراث الإمام البنا : رسالته الفريدة المركّزة التى أرسى بها دعائم العمل الحركى الجَماعى .. وهى « رسالة التعاليم » التى وجهها إلى « الإخوان العاملين » من الإخوان المسلمين ، وقال فى مقدمتها :

« أما بعد .. فهذه رسالتى إلى الإخوان المجاهدين من الإخوان المسلمين ، الذين آمنوا بسمو دعوتهم ، وقُدسية فكرتهم ، وعزموا صادقين على أن يعيشوا بها ، أو يموتوا فى سبيلها .. إلى هؤلاء الإخوان فقط أُوجِّه هذه الكلمات الموجزة وهى ليست « دروساً تحفظ » لكنها « تعليمات تُنفَّذ » ..

أما غير هؤلاء ، فلهم دروس ومحاضرات ، وكتب ومقالات ، ومظاهر وإداريات ، ولكلٍّ وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات . وكُلاً وعَدَ الله الحُسنى » .

اشتملت الرسالة على « أركان عشرة » للعمل الإسلامى المنشود ، أطلق عليها عنوان « أركان البيعة » وذلك لأن كل مَن يريد أن ينتقل من « عضو مشترك »

---

(١) منذ نحو سبعة عشر عاماً لقيت الأخ الأستاذ أحمد سيف الإسلام حسن البنا فى « لندن » وحدثته عن ضرورة جمع تراث الإمام الشهيد ، ونشره كله : رسائل ومقالات وبيانات وأحاديث ثلاثاء ... إلخ . فبشرنى بأنه يوشك أن يفرغ من هذا ويعده للنشر ، ومما يؤسف له أن تمضى هذه المدة ، وينقضى أكثر من أربعين عاماً على استشهاد الإمام البنا ، ولم يستطع ورثته ولا جماعته أن ينهضوا بهذا الواجب !! إن تراث البنا ملك لأجيال الأمة جميعاً ، فيجب نشره وتعميم النفع به .

إلى « عضو عامل » أو « أخ عامل » لا بد له أن يبايع قائد الدعوة أو مَن ينوب عنه على تحمل تبعات هذه المرحلة وأعبائها ، وما توجبه على صاحبها من سمع وطاعة وكتمان وجهاد وتضحية وعمل متواصل وثبات إلى النهاية .

وقد نناقش معنى هذه البيعة ومضمونها فى مقام آخر . ولكن الذى يعنينا الآن من أركان البيعة العشرة هو : الركن الأول « الفهم » .

* * *

● خلاصة مركَّزة لقراءات مطوَّلة :

ومَن قرأ هذه الأصول وتدبرها حق التدبر ، وكان له اطلاع على مصادر العلم والمعرفة الإسلامية أيقن أنها تمثل خلاصة مركَّزة لقراءات طويلة ، ودراسات عميقة فى علوم القرآن والسُّنَّة ، والأصولين : أصول الفقه وأصول الدين ، والفقه والتصوف ، مع عقلية هاضمة مستوعبة ، قادرة على التأصيل والترجيح .

ولا غرو فقد كان التكوين العلمى لحسن البنا تكويناً متيناً راسخاً ، وكان أول رفقائه فى مراحل دراسته المختلفة ، وفى دار العلوم ، وكان قارئاً واعياً للقديم والجديد ، عالماً بمذاهب العلماء السابقين من السَّلَف والخَلَف ، خبيراً باتجاهات المحدَثين والمعاصرين ، وخصوصاً « مدرسة المنار » التجديدية ، وكان البنا رحمه الله أقرب إلى فكر السيد رشيد رضا فى انضباطه من فكر الإمام محمد عبده فى انطلاقه .

ومَن أراد أن يعرف مقدار « الأصالة العلمية » لحسن البنا ، فليقرأ الأعداد الخمسة التى أصدرها من مجلة « الشهاب » التى رأس تحريرها بنفسه ، والتى أراد بها أن يسد ما لمسه من قصور وتقصير لدى أتباعه وجنوده فى المجال العلمى والفكرى ، وقد انشغل هو بتأليف الرجال عن تأليف الكتب .

كان حسن البنا يحرر جملة من الأبواب بقلمه فى المجلة ، فهو يكتب فى « العقيدة » بدءاً بعقيدة الألوهية « الله » .. ويكتب فى « التفسير » بدءاً بسورة الفاتحة .. ويكتب فى « علوم الحديث » بدءاً بالرواية والإسناد .. ويكتب فى أصول الإسلام كنظام اجتماعى ، وقد بدأ بالكتابة عن « السلام فى الإسلام » .. ويكتب فى « التاريخ » ، وهو فى جميعها أصيل ومجيد .

ولهذا عُنى العلماء والدعاة من أبناء الحركة الإسلامية برسالة التعاليم ، وبركن الفهم ، أو الأصول العشرين ، مجتهدين فى شرحها وتفسيرها .

وأول مَن حاول ذلك هو العالِم الفاضل ، والواعظ المربى ، الشيخ عبد المنعم أحمد تعيلب ، وقد شرح الرسالة كلها شرحاً موجزاً سريعاً . وقد قام جدال فى ذلك الوقت (أوائل الخمسينات) بين قطبين من أقطاب الدعوة حول هذا الشرح، وهما الأستاذان : البهى الخولى ، وعبد العزيز كامل ، فقد كان الأول يرى ألا يُعطى الحق لكل واحد فى شرح تراث البنا والتعليق عليه ، وإنما ينبغى أن يكون ذلك بتكليف من الجماعة ، وإلا فسرها كل امرئ بما شاء ، مع أن رسائل البنا تمثل المنهاج الرسمى للإخوان المسلمين ، فلا يجوز أن يتهاون فى أمرها داخل الجماعة . وكان رأى الثانى أن هذه الاتجاه يفرض ديكتاتورية فكرية على الجماعة وعلمائها ، ويُكبِّل حركة الفكر فيها ، ويعطى لبعض أبنائها سلطة بابوية على بعض .

والواقع أن هذا الجدل قد لفت نظرى إلى هذه الرسالة ، وإلى الاهتمام بركن «الفهم » أو بـ « الأصول العشرين » بصورة خاصة ، وتكونت عندى رغبة للتصدى لشرح هذه الأصول شرحاً علمياً موثَّقاً مفصَّلاً فى ضوء القواعد والعلوم الإسلامية .

وعندما كنا فى السجن الحربى فى أيامنا الأخيرة سنة ١٩٥٦ ، حين فُكَّت عنا بعض القيود ، وأتيح لبعضنا أن يجلس إلى بعض ، بدأتُ الحديث مع بعض

الإخوان حول هذه الأصول ، وحثّنى الكثيرون أن أعمد إلى شرحها ، إذا يسّر الله لنا الخروج من الأسر ، وهيأ الأسباب للكتابة .

وظل هذا التوجه قائماً فى النفس ، ولا سيما بعد أن أعرت إلى قَطر سنة ١٩٦١ ، وبعد أن يئست من العودة القريبة إلى مصر منذ محنة ١٩٦٥ ، وبعد أن كتب إلىّ بعض الإخوة الذين عرفوا هذا التوجه عندى يستحثوننى على الكتابة فى الموضوع ، ومنهم الأخ الصديق عبد الله العقيل مدير إدارة الشئون الإسلامية بالكويت عند ذاك .

وفى صيف سنة ١٩٦٦ ، التقيتُ بمجموعة من الإخوة فى الأردن ، فى صورة مخيم بالمدرسة الإسلامية بمدينة « اربد » ، فى لقاء مطوّل تحدثت معهم عن «الأصول العشرين » ودلالاتها النظرية والعملية ، وكا هذا سبباً فى المزيد من التحريض لى على الوفاء بما وعدتُ به من شرح هذه الأصول .

وبالفعل كتبتُ فصولاً متعددة فى شرح بعض الأصول ، ولكنها لم تكن مرتّبة، وعندما عادت مجلة « الدعوة » القاهرية للظهور مرة أخرى بإشراف الأستاذ عمر التلمسانى أوائل السبعينات ، شرعتُ أنشر فيها بعض ما كنت أعددته من شرح، مبتدئاً بالأصل الأول الذى يتحدث عن « شمول الإسلام » بوصفه نظاماً كاملاً للحياة .. وبعد جملة أعداد توقفتُ عن الاستمرار .

ومنذ سنوات ألحّ علىّ بعض الإخوة أن أُنظّم معهم جلسات علمية هادئة ، أشرح فيها هذه الأصول أصلاً أصلاً ، وأتلقى الأسئلة حولها ، على أن يُسجّل هذا الشرح فى أشرطة كاسيت ، وأن توزع فى نطاق محدود ، إلى أن يوفق الله للشرح المكتوب والمنشود ، وتم هذا الشرح مسجلاً فى خمسة عشر شريطاً ، عُنى بعض الإخوان بنشرها فى شتّى القارات ، وعلى نطاق أوسع مما كنت أظن ، ونفع الله بها كثيرين فى المشرق والمغرب (١) . وطلب إلىّ بعض الناشرين أن يفرّغوها وينشروها على ما هى عليه . ولكنى رفضتُ ذلك ، حتى لا يثبطنى ذلك عن إكمال الشرح التحريرى المطلوب .

---

(١) رأيت بعض الإخوة الذين شرحوا « الأصول العشرين » أخيراً ، قد استفادوا من شرحى المسجل واقتبسوا منه : فى العناوين والمضامين والأمثلة والأدلة ، وأشار إلى ذلك بعضهم مشكوراً فى بعض المواضع – ولم يشر آخرون ، سامحهم الله .

وقد ظهرت فى السنوات الأخيرة عدة شروح لهذه الأصول ، أعتقد أن أهمها هو شرح شيخنا الشيخ محمد الغزالى ، الذى سماه « دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين » وهو ما جعلنى أتكاسل بعض الوقت عن إتمام كتابى ، ثم شرح اللّه صدرى لاستكمال ما بدأتُ به ؛ إذ لا مانع من تعدد الشروح ، ولكل شيخ طريقته كما يقولون ، وكم رأينا لعلمائنا المتقدمين من شروح عدة لكتاب واحد ، وقد يوجد فى المفضول مالا يوجد فى الفاضل .

وشرحى هذا يهتم بالتأصيل والتفصيل والتدليل ، ويركِّز على شرح الأفكار ، أكثر من التركيز على شرح الألفاظ ، وبخاصة ما كان مجهولاً ، أو غامضاً لدى بعض الناس ، أو ينازع فيه منازعون ، أو يشكك فيه مشكِّكون ، أو يرتاب فيه مترددون ، مجتهداً أن أرد الأمور إلى جذورها من علومنا الإسلامية الأصيلة ، محتكماً إلى النصوص المحكمة ، والقواعد الضابطة للفهم والاستدلال ، ولا سيما مثل علم أصول الفقه ، وأصول التفسير ، وأصول الحديث . وما تفرّق من الأحكام والمبادئ الهادية فى مختلف المعارف والعلوم . ومستأنساً بأقوال الراسخين من العلماء فى شتّى التخصصات ، ومن شتّى المذاهب ، غير متعصب لمدرسة معيَّنة ، ولا لمذهب معيَّن . مستمداً العون والتوفيق من اللّه جَلَّ جلاله . فقديماً قال الشاعر :

إذا لم يكن عون من اللّه للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده !

هذا .. ومن المقترحات التى لقيت قبولاً عندى ما عرضه بعض الإخوة من نشر ما تتم كتابته من شرح هذه الأصول فى صورة رسائل متتابعة ، كل رسالة تتضمن أصلاً واحداً أوأصلين ، ثم ترتب بعد ذلك فى كتاب من جزأين أو عدة أجزاء .

وها أنا أتوكل على اللّه عزّ وجَلّ ، وأصدر الرسالة الأولى عن الأصل الأول، داعياً اللّه تعالى أن يسدد خُطانا ، ويرزقنا التوفيق لإخراج سائر الأصول ، وأن

يغفر لنا ما يزل به الفكر أو القلم ، وأن يتم علينا النعمة بتحصيل أجرَىْ مَن اجتهد فأصاب ، ولا يحرمنا الأجر إن اجتهدنا فأخطأنا . ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنتَ مَوْلَانَا ، فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [1] .

الدوحة فى ذى القعدة ١٤١١ هـ (مايو ١٩٩١ م)

الفقير إلى عفو مولاه
الدكتور يوسف القرضاوى

* * *

(١) البقرة : ٢٨٦ .

الأصول العشرون

يقول الإمام البنا :

أيها الإخوان الصّادقون

أركان بَيعتنا عشرة فاحفظوها :

« الفهم ، والإخلاص ، والعمل ، والجهاد ، والتضحية ، والطاعة ، والثبات ، والتجرد ، والأخوة ، والثقة » .

أيها الأخ الصادق :

إنما أريد بالفهم :

أن توقن بأن فكرتنا « إسلامية صميمة » وأن تفهم الإسلام كما نفهمه ، فى حدود هذه الأصول العشرين الموجزة كل الإيجاز :

١ - الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة ، وهو خُلُق وقوة أو رحمة وعدالة ، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء ، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة ، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة ، سواءً بسواء .

٢ - والقرآن الكريم والسُنَّة المطَّهرة مرجع كل مسلم فى تعرُّف أحكام الإسلام، ويُفهم القرآن طبقاً لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف ، ويُرجع فى فهم السُنَّة المطَّهرة إلى رجال الحديث الثقات .

٣ - وللإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله فى قلب مَن يشاء من عباده ، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية ، ولا تُعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه .

٤ - والتمائم والرُّقى والوَدَعُ والرَّمْلُ والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب، وكل ما كان من هذا الباب منكَر تجب محاربته « إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة » .

٥ - ورأى الإمام ونائبه فيما لا نص فيه ، وفيما يحتمل وجوهاً عدة وفى المصالح المرسلة ، معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية . وقد يتغير بحسب الظروف والعُرف والعادات . والأصل فى العبادات التعبد دون الالتفات إلى المعانى ، وفى العاديات الالتفات إلى الأسرار والحِكم والمقاصد .

٦ - وكل أحد يُؤخذ من كلامه ويُترك إلا المعصوم ﷺ ، وكل ما جاء عن السَلَف رضوان الله عليهم موافقاً للكتاب والسُنَّة قبلناه ، وإلا فكتاب الله وسُنَّة رسوله أولى بالاتباع ، ولكنَّا لا نعرض للأشخاص - فيما اخْتُلِفَ فيه - بطعن أو تجريح ، ونكلهم إلى نيَّاتهم ، وقد أفضوا إلى ما قدَّموا .

٧ - ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر فى أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماماً من أئمة الدين ، ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع فى تعرف أدلته ، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صلاح مَن أرشده وكفايته . وأن يستكمل نقصه العلمى إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر .

٨ - والخلاف الفقهى فى الفروع لا يكون سبباً للتفرق فى الدين ، ولا يؤدى إلى خصومة ولا بغضاء ، ولكل مجتهد أجره ، ولا مانع من التحقيق العلمى النزيه فى مسائل الخلاف فى ظل الحب فى الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة ، من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب .

٩ - وكل مسألة لا ينبنى عليها عمل ، فالخوض فيها من التكلف الذى نُهينا عنه شرعاً ، ومن ذلك : كثرة التفريعات للأحكام التى لم تقع ، والخوض فى معانى الآيات القرآنية الكريمة التى لم يصل إليها العلم بعد ، والكلام فى المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم ، وما شَجَرَ بينهم من خلاف ، ولكل منهم فضل صُحبته وجزاء نيّته ، وفى التأول مندوحة .

١٠ - معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام ، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يليق بذلك من التشابه ، نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل ، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء ؛ ويسعنا ما وسع رسول الله ﷺ وأصحابه : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ (١) .

١١ - وكل بِدعة فى دين الله لا أصل لها - استحسنها الناس بأهوائهم ، سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه - ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التى لا تؤدى إلى ما هو شر منها .

١٢ - والبِدعة الإضافية والتَّركيَّة والالتزام فى العبادات المطلقة خلاف فقهى، لكل فيه رأيه ؛ ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان .

١٣ - ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عُرِف من طيب أعمالهم قُربة إلى الله تبارك وتعالى ، والأولياء هم المذكورون فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٢) والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فى حياتهم أو بعد مماتهم فضلاً عن أن يهبوا شيئاً من ذلك لغيرهم .

١٤ - وزيارة القبور أياً كانت سُنّة مشروعة بالكيفية المأثورة ، ولكن الاستعانة بالمقبورين أياً كانوا ونداءهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن

---

(١) آل عمران : ٧ (٢) يونس : ٦٣

قُرب أو بُعد والنذر لهم وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها والحلف بغير اللّه وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها ، ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذريعة .

١٥ – والدعاء إذا قُرِنَ بالتوسل إلى اللّه بأحد من خلقه خلاف فرعى فى كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة .

١٦ – والعُرف الخاطئ لا يغيِّر حقائق الألفاظ الشرعية ، بل يجب التأكد من حدود المعانى المقصود بها ، والوقوف عندها . كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظى فى كل نواحى الدنيا والدين ، فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء .

١٧ – والعقيدة أساس العمل ، وعمل القلب أهم من عمل الجارحة ، وتحصيل الكمال فى كليهما مطلوب شرعاً ، وإن اختلفت مرتبتا الطلب .

١٨ – والإسلام يحرر العقل ، ويحث على النظر فى الكون ، ويرفع قدر العلم والعلماء ، ويرحب بالصالح النافع من كل شئ . و « الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها » .

١٩ – وقد يتناول كل من النظر الشرعى والنظر العقلى ما لا يدخل فى دائرة الآخر ، ولكنهما لن يختلفا فى القطعى . فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة ؛ ويؤوّل الظنى منهما ليتفق مع القطعى ، فإن كانا ظنّيين فالنظر الشرعى أولى بالاتباع حتى يثبت العقلى أو ينهار .

٢٠ – لا نكفِّر مسلماً أقرَّ بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدَّى الفرائض – برأى أو معصية – إلا إن أقرَّ بكلمة الكفر ، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة ، أو كذَّب صريح القرآن ، أو فسَّره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال ، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر .

وإذا علم الأخ المسلم « دينه » فى هذه الأصول ، فقد عرف معنى هتافه دائماً: « القرآن دستورنا والرسول قدوتنا » . ا هـ .

حسن البنا

* * *

لماذا قدّم الإمام البنا ركن « الفهم » ؟

قبل أن أبدأ فى شرح الأصول أجيب عن بعض الأسئلة التى تدور بخلد بعض الناس .

فقد يعن للقارئ هنا سؤال ، وهو : لماذا جعل الإمام البنا « الفهم » هو الركن الأول ، وقدّمه على غيره من الأركان الأخرى ، كالإخلاص والعمل والتضحية والجهاد والثبات ؟

والواقع أن البنا - رضى اللّه عنه - كان موفقاً كل التوفيق فى هذا التقديم، ولا غرو ، فقد كان الرجل بصيراً بـ « فقه الأولويات » وتقديم ما يستحق التقديم .

فما لا ريب فيه أن الفكرة تسبق الحركة ، وأن التصور الصحيح مقدمة ضرورية للتوجه الصحيح ، والعمل المستقيم . ولهذا كان العلم عندنا - نحن المسلمين - يسبق العمل ، بل العلم عندنا دليل الإيمان ، وطريق الاعتقاد السليم .

والإمام الغزالى وغيره من الصوفية الكبار يرون أن مقامات الدين ، والتخلق بأخلاق النبيين والصدِّيقين لا يتم إلا بمعجون مركّب من ثلاثة أشياء : علم وحال وعمل ، فالعلم يورث الحال ، والحال يدفع إلى العمل .

وهو يشبه ما يقوله علماء النفس عن الإدراك والانفعال والنزوع ، وهى ثلاثة يفضى بعضها إلى بعض ، بمعنى أن الإنسان يعرف ويدرك ، فيتأثر وينفعل رَغَباً أو رَهَباً ، فينزع ويريد إيجاباً أو سلباً .

وهذا الترتيب واضح فى القرآن الكريم .

يقول الله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُواْ العِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ (١) .

والعطف بالفاء يفيد الترتيب والتعقيب ، أى أن العلم يترتب عليه الإيمان ، والإيمان يترتب عليه الإخبات ، فهم إذا علموا آمنوا ، وإذا آمنوا أخبتوا .

ويقول تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (٢) .

فقدَّم الأمر بالعلم ﴿ فاعلم ﴾ على الأمر بالعمل وهو الاستغفار .

قال الإمام البخارى فى كتاب العلم : « باب العلم قبل القول والعمل » لقوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ... ﴾ ... الآية فبدأ بالعلم ، قال الشرَّاح : أراد أن العلم شرط فى صحة القول والعمل ، فلا يعتبران إلا به ، فهو متقدم عليهما ، لأنه مصحح للنية المصححة للعمل ، فنبه المصنف على ذلك ، حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم : « إن العلم لا ينفع إلا بالعمل » تهوين أمر العلم والتساهل فى طلبه (٣) .

والخطاب فى الآية وإن كان للنبى ﷺ ، فهو متناول لأمته بلا نزاع .

وأخطر ما يصيب الإنسان أن تلتبس عليه الأمور ، فيرى الباطل حقاً ، والحق باطلاً ، والمعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، والسُّنَّة بدعة ، والبدعة سُنَّة ، وأن يُزيَّن له سوء عمله فيراه حسناً ، وقد قال تعالى لرسوله : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم

---

(١) الحج : ٥٤ (٢) محمد : ١٩

(٣) صحيح البخارى مع فتح البارى ، ط . دار الفكر ، تصويراً عن ط . السلفية بإشراف الشيخ عبد العزيز بن باز ، وترقيم محمد فؤاد عبد الباقى .

بالأخسرين أعمالاً * الذين ضلَّ سعيُهم في الحياة الدُّنيا وهُم يحسبون أنَّهم يُحسنون صُنعاً ﴾ (١) .

وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ أفمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآهُ حسناً ، فإنَّ اللَّه يُضلُّ من يشاءُ ... ﴾ (٢) .

ولهذا كان من الأدعية المأثورة : « اللّهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه » .

وجاء فى بعض الأحاديث التحذير من زمن يصبح فيه المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، وهذا كله من قلة العلم .

ولهذا لم يخل كتاب من كتب الحديث المصنَّفة على الأبواب من إفراد كتاب للعلم ، كما فى الصحيحين والسنن ، وغيرها (كالمستدرك ومجمع الزوائد) .

وكان أول كتاب من كتب « إحياء علوم الدين » الأربعين هو كتاب العلم .

وأول عقبة يجب أن يقطعها السالك فى طريقه إلى اللّه هى « عقبة العلم » كما فى كتاب « منهاج العابدين » للغزالى أيضاً .

ولقد حذَّر الربانيون من أئمة السَّلف - رضى اللّه عنهم - من الإقبال على التعبد ، قبل التزود من العلم ، فقال الخليفة الراشد عمر بن العزيز : العامل على غير علم يُفسد أكثر مما يصلح (٣) .

وقال الإمام الحسن البصرى : العامل على غير علم كالسائر على غير طريق ، والعامل على غير علم ما يُفسد أكثر مما يُصلح ، فاطلبوا العلم طلباً لا يضر بالعبادة ، واطلبوا العبادة طلباً لا يضر بالعلم ، فإنَّ قوماً طلبوا العبادة وتركوا

---

(١) الكهف : ١٠٣ - ١٠٤ (٢) فاطر : ٨

(٣) ذكره ابن الجوزى فى سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه ص ٢٥ .

العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ ، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا [1] .

يعنى بهؤلاء : الخوارج الذين استحلوا دماء الأمة وأموالها ، وكفّروا الناس بالجملة ، برغم أنهم كانوا صُوّاماً قُوّاماً قُرّاءً للقرآن ، كما وصفهم الحديث : « يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم ، وصيامه إلى صيامهم ، وقراءته إلى قراءتهم» ولكن آفتهم أنهم :« يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم » أى أنهم لم يتعمقوا فى فهمه فانتهى بهم الأمر إلى أنهم « يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان » ! [2] .

ومن هنا كان لا بد من العلم قبل العمل ، كما قال معاذ - رضى الله عنه - : « العلم إمام العمل ، والعمل تابعه » [3] .

ولذا قال صلى الله عليه وسلم - وقد ذُكِر له رجلان : أحدهما عابد ، والآخر عالِم - : « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم » [4] .

إنّ العلم الشرعى فريضة وضرورة للإنسان المسلم ، حتى قال بعض السّلَف : إنّ حاجة المرء إلى العلم أشد من حاجته إلى الطعام والشراب . وهذا صحيح ؛ لأنه إذا فقد الطعام والشراب هلك بدنه ، وإذا فقد العلم هلك روحه . وأين مَن خسر الحياة الفانية ممن خسر الحياة الأبدية الباقية ؟!

وضرورة الإنسان المسلم للعلم تتمثل فيما يلى :

(أ) فهو الوسيلة الفذّة لتمييز الحق من الباطل فى العقائد ، والصواب من الخطأ فى الأفكار . وذلك بما يضعه من أصول وضوابط ، لاستقامة الفهم ، وصحة الاستدلال .

---

(١) ذكره ابن القيم فى مفتاح دار السعادة ١ / ٨٣ .
(٢) انظر فى ذلك حديث أبى سعيد الخدرى المتفق عليه « اللؤلؤ والمرجان » حديث ٦٣٩ وما بعده .
(٣) رواه أبو نعيم فى الحلية وابن عبد البر فى العلم ، وغيرهما ، ورفعه بعضهم ، والصواب وقفه .
(٤) رواه الترمذى عن أبى أمامة وقال : حسن صحيح غريب (٢٦٨٦) ط . حمص .

(ب) وهو الوسيلة الفذّة لتمييز المشروع من غير المشروع فى الأعمال . أى تمييز الحلال من الحرام فى الأشياء والتصرفات ، والمسنون من المبتدع فى القُربات والعبادات ، والحسن من القبيح فى الأخلاق والسلوك ، وهو الذى يضع القواعد والأُطر الضابطة لذلك كله .

(جـ) وهو الوسيلة الفذّة لإعطاء الأعمال والتكاليف مراتبها الشرعية الصحيحة ، ففى المأمورات يقول : هذا مُستحَب ، أو واجب أو فرض ، وهو فرض عين أو فرض كفاية ، وهو فرض عادى أو فرض مؤكد مثل أركان الإسلام .. وفى المنهيات يقول : هو مكروه أو مشتبه فيه ، أو حرام ، وفى الحرام : هو صغيرة أو كبيرة ، أو من أكبر الكبائر .

(د) – ثم هو الوسيلة الفذّة للحكم العادل على الأفراد والجماعات ، وتقويم المواقف والأحداث تقويماً سليماً ، بعيداً عن الشطط والهوى ، وعن الإفراط والتفريط.

* * *

• لماذا عبّر الأستاذ بـ « الفهم » بدل « العلم » ؟

وإنما عبر الأستاذ البنا عن « العلم » بـ « الفهم » لأنه المقصود من العلم ، فليس العلم بكثرة الرواية بقدر ما هو عمق الدراية ، ولهذا علّق القرآن والسنّة الخير « بالتفقه فى الدين » لا بمجرد « تعلم الدين » .

يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١) .

ويقول الرسول ﷺ : « مَن يُرِدِ اللّه به خيراً يفقهه فى الدين » (٢) . والفقه

---

(١) التوبة : ١٢٢ (٢) متفق عليه من حديث معاوية .

أخص من العلم ، فهو يعنى الفهم بل الفهم الدقيق ، الذى ينفذ إلى اللباب ، ولا يكتفى بالقشور وهو الذى يُنير العقل ، ويُحيى القلب [1] .

* * *

● صحة الفهم من أعظم النعَم :

يقول العلأمة ابن القيم فى شرح ما جاء فى « كتاب عمر فى القضاء » عند قوله : الفهم الفهم فيما أدلى إليك : « صحة الفهم وحُسْن القصد من أعظم نعم الله التى أنعم بها على عبده ، بل ما أُعْطِىَ عبدٌ عَطَاءً بعد الإسلام أفضل ولا أجَلّ منهما ، بل هما ساقا الإسلام ، وقيامُهُ عليهما ، وبهما يأمن العبد طريقَ المغضوب عليهم الذين فَسَدَ قَصْدُهم ، وطريق الضالين الذين فسدت فهومُهم ، ويصير من المُنْعَم عليهم الذين حَسُنت أفهامهم وقُصُودهم ، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهديَنَا صراطَهم فى كل صلاة ، وصحة الفهم نورٌ يقذفه الله فى قلب العبد ، يميز به بين الصحيح والفاسد ، والحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغى والرشاد ، ويمدُّه حسن القصد ، وتَحَرِّى الحق ، وتقوى الربِّ فى السر والعلانية ، ويقطع مادتَه اتباعُ الهَوَى ، وإيثارُ الدنيا ، وطلب محمدة الخلق ، وترك التقوى » [2] .

وقد روى الإمام البخارى فى صحيحه عن علىٍّ رضى الله عنه وكرَّم الله وجهه أنه سُئل : هل خصَّكم رسول الله ﷺ بشئ ؟ . قال : لا ، إلا فهماً يُؤتاه عبد فى كتاب الله ، وما فى هذه الصحيفة .. وأخرج صحيفة فيها بعض الأحكام ..

---

(١) بيَّن الإمام الغزالى فى كتاب « العلم » من « الإحياء » أن كلمة « الفقه » من الكلمات التى بُدِّلت معانيها عما تدل عليه فى القرآن والسُنَّة ، وعما كان يفهمه منها الصحابة وسَلَف الأمة .

(٢) إعلام الموقعين لابن القيم جـ ١ ص ٨٧ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

فالفهم عن الله ورسوله من أعظم النعم .

وشر ما يصاب به إنسان عدم الفهم عن الله ورسوله .

وشر منه أن يفهم عن الله ورسوله عكس ما يريدانه ، فيحرِّف الكلم عن مواضعه . وهذه أسوأ الآفات .

* * *

● لماذا نعنى بشرح هذه الأصول ؟

وسؤال آخر قد يعرض لبعضُ الناس ، بل قالوه .

قالوا : لِمَ كل هذه العناية بهذه الأصول ؟ وهل هى من كلام الله تبارك وتعالى ، أو من كلام رسوله ﷺ ، حتى تتناولوه بالشرح والتفسير والتحليل ؟

وبعبارة أخرى : هل تعتبرون إمامكم من أهل العصمة ؟!

هل كان جسن البنا معصوماً ؟

لا ، والله ، لم يدَّعِ ذلك يوماً ، ولم يدَّعه له أحد من أصحابه وتلاميذه ، برغم فرط حبهم له ، وإعجابهم به ، وثنائهم عليه .

كيف وهو الذى جعل أحد أصوله العشرين : أنَّ كل واحد يُؤخذ من كلامه ويُترك إلا النبى ﷺ ؟ (الأصل السادس) .

فلماذا - إذن - نعنى بكلامه ونشرحه ؟ حتى قال بعض الناس : هل هو قرآن أو حديث حتى تشرحوه ؟!

وقائل هذا قليل البضاعة من العلم بالدين والتراث والحياة . فليس القرآن وحده هو الذى يُفسَّر ، ولا الحديث وحده هو الذى يُشرح ، فكم من كتب ألَّفها بَشر غير معصومين ، كُتبت عليها الشروح المختصرة ، والوسيطة ، والمطوَّلة ، وكتبت على الشروح حواش ، وعلى الحواشى تقريرات وإفادات .

وهذا فى كل العلوم : الدينية وغير الدينية ...

فى علم العقيدة نجد : شرح « الفقه الأكبر » للإمام أبى حنيفة ، وشرح العقيدة الطحاوية ، وشرح العقيدة الواسطية ، وشرح السنوسية ، والعقائد النسفية ، والجوهرة ، وغيرها ..

وكنا - ونحن طلبة فى كلية أصول الدين بالأزهر - ندرس « العقائد النسفية » وعليها شرح للعلأمة سعد الدين التفتازانى ، وعلى الشرح ثلاث حواش ، لكل من : الخيالى ، والعصام الاسفراييني ، وعبد الحكيم السيالكوتى .

وفى الفقه : عُرِفت المتون الشهيرة فى المذاهب ، مثل « الكنز » و « الهداية » عند الحنفية ، و « الرسالة » و « مختصر خليل » عند المالكية و « المنهاج » و « أبى شجاع » عند الشافعية ، و « الإقناع » و « المنتهى » و « الزاد » عند الحنابلة ، وكلها حظيت بشروح متعددة ، مختصرة ومطوّلة ومتوسطة .

وفى الأصول : عُرِفت « ورقات » إمام الحرمين ، ومنهاج البيضاوى ، ومسلم الثبوت ، ومختصر ابن الحاجب ، وتوضيح صدر الشريعة ، وغيرها .

وفى علوم الحديث : عُرِفت مقدمة ابن الصلاح وشروحها ، وتقريب النواوى ، ونخبة ابن حجر .. .. إلخ .

وفى التصوف : عُرِفت حكم ابن عطاء وشروحها ، بل وضع العلأمة الزبيدى شرحاً على « إحياء علوم الدين » على سعته .

وفى اللغة وعلومها من النحو والصرف والبلاغة نجد متوناً وشروحاً وحواشى معروفة للدارسين . حتى إن العلأمة المرتضى الزبيدى شرح « القاموس » شرحه الضخم المعروف « تاج العروس » .

فلا غرابة - إذن - فى شرح هذه الأصول التى وضعها حسن البنا ، لتكون أساساً لوحدة الفهم عند العاملين للإسلام ، وحرص على أن تكون موجزة كل

الإيجاز ، مركّزة كل التركيز ، بحيث يسهل هضمها وحفظها . فهى أشبه بـ « المتون » فى علم الفقه وغيره من العلوم الإسلامية . والمتون دائماً تحتاج إلى شروح توضّح مراميها ، وتكمل ما سكتت عنه ، وتستدل لما ذكرته من أحكام وقضايا .

* * *

- لمن كتب حسن البنا هذه الأصول ؟

وسؤال ثالث قد يُسأل هنا ، وهو : لمن كتب حسن البنا هذه الأصول العشرين؟ ومَن هو المعنى بخطابه هنا من أصناف الناس ؟

ومن الواضح أنه خاطب بهذه الأصول صنفين :

الأول : الإخوان العاملين أو المجاهدين من جماعة « الإخوان المسلمين » . فمن المعلوم أن « الإخوان » هيئة عامة ، قامت لتجديد الإسلام فى عقول المسلمين ونفوسهم وحياتهم : اعتقاداً وفكراً وخُلُقاً وسلوكاً . وقد ضمت فى صفوفها ألواناً مختلفة من الناس ، منهم السَلَفى ، ومنهم الصوفى ، منهم المتمسك بمذهبه ، ومنهم لا يرى التمذهب . منهم المحافظ الميَّال إلى القديم ، ومنهم المتحرر الميَّال إلى الجديد . منهم المثقف بالثقافة الشرعية ، ومنهم المثقَف بالثقافة المدنية .. إلخ .

وهذه الأمزجة والاتجاهات المختلفة تحتاج إلى « قواسم مشتركة » فى الفكر ، تجمع بينها ، على اختلاف نزعاتها ، وتُوحِّد مفاهيمها الأساسية فى القضايا الكلية ، والمسائل الدينية الكبرى ، وإن بقى بعض الاختلاف فى الفرعيات والتفصيلات التى يتعذر أن يتفق الناس عليها .

الصنف الثانى : يتمثل فى الجماعات والفئات الدينية المختلفة ، التى كانت تضمها الساحة المصرية ، يوم كتب الإمام البنا هذه الأصول ، وهى شبيهة إلى

حد كبير بما نحن عليه اليوم ، وقديماً قال الشاعر العربى : ما أشبه الليلة بالبارحة ! وقال مَن قال من الغربيين : التاريخ يعيد نفسه !

ومهما اختلف الناس فى صدق هذه المقولة ، فإن مما لا يُجحد أن كثيراً من المواقف والأوضاع قد تتكرر أو تتشابه إلى حد بعيد .

أجَلْ .. كانت عين حسن البنا - رضى الله عنه - وهو يكتب هذه الأصول العشرين - مركّزة على الجماعات الدينية المختلف بعضها مع بعض ، التى تتبادل التجريح والاتهام ، إلى حد التفسيق بل التكفير .

وقد رأى ذلك بعينى رأسه ، ولمس آثاره براحتيه ، فمنذ بزغ فجر دعوته بمدينة الإسماعيلية ، حيث الجماعات الدينية ذات الاتجاه السّلفى أو السُنّى تمثل اتجاهاً، وهى فيما بينها تتراشق التهم ، ثم الجماعات الصوفية بطُرقها ومشايخها وأتباعها وشاراتها ، تمثل اتجاهاً آخر ، معادياً ومناقضاً للاتجاه الأول ، وبينهما حرب جدلية لا يخمد أوارها .

ثم هناك العلماء والوعّاظ والخطباء الذين لا ينتمون لأحد المعسكرين ، والذين لا يعجبون أولئك ولا هؤلاء ، ولا يعجبهم أيضاً أولئك ولا هؤلاء .

كان هذا ما رآه ولمسه حسن البنا فى الإسماعيلية ، ثم ما رآه بعد ذلك فى القاهرة - بصورة أكبر - بين الاتجاهات الدينية المختلفة .

ولما كان الرجل مشغول الفكر والقلب بتوحيد الأمة المسلمة ، التى فرّقتها الخلافات من كل جانب ، حتى قاتل بعضها بعضاً فى أيام الحرب العالمية الأولى ، وقد سقطت آخر راية كانت تجمع أمة الإسلام تحت ظل العقيدة ، وهى راية الخلافة سنة ١٩٢٤ ، وبرزت النزعات القومية والوطنية ، بديلاً للوحدة الإسلامية ، والقومية الإسلامية .

لهذا كان من المهم - بل من الضرورى - توحيد الجبهة الداخلية الإسلامية بكل وسيلة ممكنة : جبهة الداعين إلى الإسلام ، والرافعين لشعاراته المتنوعة

والعمل على تضييق دائرة الخلافات الدينية والفكرية بينهم ، وجمعهم على «الحد الأدنى » من الأصول والمفاهيم الإسلامية التى تُوحِّد ولا تُفرِّق ، وتُقرِّب ولا تُباعِد .

وحين أنشئ اتحاد للجماعات الدينية فى مصر ، أو حين أريد انشاؤه تقدَّم الشهيد بهذه الأصول المركَّزة ، لتكون محوراً تلتقى عليه هذه الجماعات المختلفة .

* * *

● من مزايا هذه الأصول :

ومن هنا نلاحظ فى هذه الأصول عدة أمور :

أولاً : أنها تتجه غالباً إلى المسائل التى تختلف فيها وجهات النظر ، بين المدارس الدينية قديماً وحديثاً ، كالخلاف بين السَّلَف والخَلَف من المتكلمين ، والخلاف بين الاتجاه الصوفى والاتجاه السَّلَفى ، والخلاف بين أنصار التقليد المذهبى و « اللامذهبيين » ..

ثانياً : أنها مصوغة بحكمة واعتدال ، بحيث يمكن أن يلتقى عليها العقلاء من أتباع هذه المدارس ، إذا توافر القدر الضرورى من الفهم والإخلاص والتسامح .

ثالثاً : أنه قصد فيها إلى التركيز والإيجاز ، لا إلى الشرح والتفصيل ، لأن التوسع والتفصيل فى هذه الأمور ، يتيح فرصة أكبر للخلاف ، وتعدد الآراء وتضاربها وهو عكس المقصود .

رابعاً : أنها لم تعن كثيراً بالتوجه إلى العلمانيين والمثقفين ثقافة غربية ، ولو كان ذلك من قصدها واهتمامها ، لأضافت إلى هذه الأصول أصولاً أخرى .

ولهذا حين أردتُ أن أتقدَّم معالم الإسلام لهؤلاء فى كتابى « الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه » ذكرتُ ثمانية عشر معلماً ، أو أصلاً ، ذات مضمون

آخر ، ووجهة أخرى [1] ، وأعتقد أنه لو كان الإمام الشهيد مكانى لفعل مثل ما فعلت ، ولكل مقام مقال .

وأود أن أقول كلمة هنا عن اتجاه التوحيد والتجميع والتوفيق بين المختلفين ، الذى تميَّزت به صياغة الإمام الشهيد لهذه الأصول .

* * *

● اتجاه التجميع والتوفيق :

ولا ريب أن الاتجاه التوحيدى والتوفيقى ، فى هذه الأصول واضح ، كل الوضوح ، وحينما بدأتُ أكتب فى شرح هذه الأصول ، وعلى الأصح أنشر بعض ما كان عندى من شرحها ، عندما بدأت مجلة « الدعوة » فى الظهور فى أوائل السبعينات بإشراف المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمسانى - رحمه الله - ، جعلت لها عنواناً أساسياً ثابتاً ، هو : « نحو وحدة فكرية إسلامية » ، ومن توفيق الله لنا أن شيخنا الغزالى - حفظه الله ومَدَّ فى عمره فى خدمة الإسلام - لحظ هذا الملحظ نفسه ، فسمى كتابه الذى شرح فيه هذه الأصول العشرين « دستور الوحدة الثقافية المسلمين » .

وقد كان التكوين العقلى والنفسى لحسن البنا يتجه إلى البناء لا الهدم ، وإلى الجمع لا التفريق .

وهذا هو السر فى أن الإمام حسن البنا لم يفصل فى بعض الأمور ، وتركها لكل فريق يرى فيها رأيه ، حسبما يلوح له من الأدلة ، كما فى موضوع «التوسل » بالنبى ﷺ أو بالصالحين .

فبعد أن أكَّد ضرورة أن يكون المدعو والمتوسَّل إليه هو الله تبارك وتعالى ذكر أن قضية التوسل (بجاه النبى ونحوه) تدخل فى مسائل « الفروع العملية » التى يبحث فيها علم « الفقه » وليست من « الأصول العقائدية » التى يبحث

(١) انظر : كتابنا « الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه » ص ٣٦ - ٤٧ ط . دار الصحوة بالقاهرة .

فيها علم « التوحيد » لأنها تتعلق بالخلاف فى كيفية الدعاء ، فتخرج بذلك من العقيدة إلى العمل .

وبعض المتحمسين لوجهة معيَّنة يعيبون على الشيخ - رحمه اللّه - أنه لم يحسم فى هذا الأمر ، برأى قاطع ، وذلك لأنهم ينظرون من زاوية غير زاويته ، ويسعون إلى هدف غير هدفه ، ويسلكون سُبلاً غير سبيله .

فالرجل يريد أن يجمع الأمة على الأهداف الكبرى ، وأن يحشد صفوفها - على اختلاف وجهاتها - فى مقابلة القوى المعادية للإسلام جهراً ، والمتربصة به سراً ، ويحرص على أن تتناسى الخلافات الجزئية فيما بينها لتقف أمام أعدائها صفاً كأنهم بنيان مرصوص .

وليس معنى هذا أن يتنازل عن أساسيات الإسلام ، فهذا غير وارد في هذا المقام بحال من الأحوال .

ولهذا أنكر ادعاء الكشف والإلهام والرؤى ، واعتبارها مصدراً للأحكام والسلوك ، وأنكر الخرافات والشركيات المتعلقة بالتمائم والرُّقى والكهانة وزيارة القبور والغلو فى الأولياء والكرامات ونحوها .

كما أنكر الابتداع فى الدين ، وشرع ما لم يأذن به اللّه .. .. إلخ .. ودعا إلى التمسك بالكتاب والسُنَّة ، والرجوع إليهما فى معرفة أحكام الإسلام .

فالتجميع والتوفيق الذى حرص عليه الإمام البنا إنما هو فى الأمور التى تتعدد فيها الاجتهادات وتختلف فيها وجهات النظر ، فلا بأس من تركها دون حسم .

وهذا هو شأن الراسخين من أهل العلم ، الذين كثيراً ما يُسألون فيقولون : لا ندرى ، أو يذكرون أقوال أهل العلم قبلهم واختلافهم فيها ، ولا يرجحون قولاً على قول .

وقد روى هذا عن الإمام الشافعى رضى الله عنه فى عدد من المسائل ، وعقّب على ذلك الإمام الرازى فى « المحصول » فقال : هذا يدل على كمال منصبه فى العلم والدين .

« أما العلم - فلأن كل مَن كان أغوص نظراً ، وأدق فكراً ، وأكثر إحاطة بالأصول والفروع ، وأتم وقوفاً على شرائط الأدلة : كانت الإشكالات عنده أكثر .

أما المصرّ على الوجه الواحد - طول عمره - فى المباحث الظنية بحيث لايتردد فيه : فذلك لا يكون إلا من جمود الطبع ، وقلة الفطنة ، وكلال القريحة ، وعدم الوقوف على شرائط الأدلة والاعتراضات .

وأما الدين - فمن وجهين - :

الأول : أنه لما لم يظهر له فيه وجه الرجحان : لم يَسْتَحِ من الاعتراف بعدم العلم ، ولم يشتغل بالترويج والمداهنة ، بل صرّح بعجزه عما هو عاجز فيه . وذلك لا يصدر إلا عن الدين المتين .

كيف - وقد نُقل عن عمر - رضى الله عنه - اعترافه بعدم العلم ، فى كثير من المسائل [1] . وجميع المسلمين عدُّوا ذلك من مناقبه وفضائله ، فكيف جعلوه عيباً ههنا ؟!

والثانى : وهو أنه - رضى الله عنه - لم يقل ابتداءً : « إنى لا أعرف هذه المسألة » بل وجد المسألة واقعة بين أصلين ، فذكر وجه وقوعها بينهما ، وكيفية اشتباهها بهما . ثم لما لم يظهر له الرجحان - تركها على تلك الحالة ليكون ذلك بعثاً له على الفكر بعد ذلك ، وحثاً لغيره من المجتهدين على طلب الترجيح .

---

(١) نحو هذا رُوى عن سيدنا عمر - رضى الله عنه - فى مواضع كثيرة ، منها ما يتعلق بميراث الجد والإخوة ، وميراث الكلالة ، وبعض أبواب الربا ، وقد أخرج ذلك عنه البخارى ومسلم وغيرهما. وانظر سنن البيهقى : (٦ / ٢٤٥) ، وفتح القريب (١ / ٣٩) .

وهذا هو اللائق بالدين المتين ، والعقل الرصين ، والعلم الكامل .. بل مَن أنصف واعترف بالحق : علم أن ذلك مما يدل على رجحان حاله ، على حال سائر المجتهدين : فى العلم والدين (١) .

وما لاحظه الإمام البنا منذ نحو نصف قرن - من الحاجة إلى التجميع والتوفيق - لا زلنا نلاحظه إلى اليوم .

ففى البلاد التى زرتها داخل العالم الإسلامى ، وفى الجاليات والتجمعات الإسلامية التى التقيتُ بها خارج العالم الإسلامى ، وفى المؤتمرات والندوات التى شاركتُ فيها فى أقطار شتّى فى المشرق والمغرب - كان هناك سؤال مشترك يتكرر ويلح ويضغط علينا . نحن الداعين للإسلام ، والمنتمين إلى الجماعات والحركات الإسلامية .

هذا السؤال يقول : لماذا يظل الخلاف قائماً بين الجماعات الإسلامية ؟ ولماذا لا تتوحد كلها فى جماعة أو حركة إسلامية عالَمية كبرى ، بدل هذه الجماعات المتفرقة المتناثرة ؟! إن الاتحاد يقوى القلة ، والاختلاف يضعف الكثرة ! ولماذا الاختلاف بينها ؟ أليست كلها تعمل لنُصرة الإسلام ، وإقامة دولة الإسلام ؟! أوَ ليس الإسلام هدف الجميع ، ومنطلق الجميع ؟ فلماذا يتفرقون ولا يجتمعون؟ ولماذا يختلفون ولا يتوحدون ؟

وكم تمنى دعاة مخلصون أن تقوم فى عصرنا حركة إسلامية عالَمية واحدة ، تضم كل الحركات ، وتستوعب كل الطاقات ، فتكون أقدر على التصدى لتكتلات القوى المعادية ، ومؤامرات الصهيونية ، والصليبية ، والشيوعية والوثنية ، التى قد تختلف فيما بينها وتتفق علينا .

---

(١) المحصول فى علم أصول الفقة للإمام فخر الدين الرازى - تحقيق د . طه جابر العلوانى جـ٢ قسم ٢ ص ٥٢٧ ، ٥٢٨

ومما لا يخفى على دارس أن هناك عقبات جمة تقف فى سبيل هذه الوحدة المرغوبة .

فالوحدة تقتضى الاتفاق على الأهداف ، وعلى ترتيبها .

ثم على المناهج والوسائل التى تُتخذ لتحقيق الأهداف المنشودة .

ثم على القيادة والثقة بإخلاصها ، وكفايتها ، وقُدرتها على استخدام تلك الوسائل لتحقيق تلك الأهداف .

وهذا ليس من اليسير أن يتوافر إلا داخل الجماعة الواحدة .

ولهذا أرى أن الحلم بالحركة التى تستوعب كل الحركات ، أو الجماعة التى تضم كل الجماعات – حلم جميل ، ولكنه – بمنطق الواقع – بعيد التحقيق .

واعتقادى الذى سجلته فى أكثر من كتاب : أنه ليس من الضرورى توحيد الجماعات الإسلامية ، وصبها فى قالب واحد . بل يكفى التقريب بينها ، وإزالة أسباب التنافر والتناكر بين بعضها وبعض ، والعمل على أن يكون بينها قدر من التنسيق والتفاهم والتعاون . بحيث يكمل بعضها بعضاً ، وبحيث تقف فى القضايا الكبيرة جبهة واحدة ، كالبنيان المرصوص . وبهذا يكون اختلافها اختلاف تنوع وثراء ، لا اختلاف تناقض وصراع .

ومما يعين على هذا التقارب والتفاهم والتعاون ما ذكرناه من ضرورة توفير « حد أدنى » من « المفاهيم المشتركة » التى تجمع بين المتفرقين ، وتقارب بين المتباعدين ، وتوثق الصلة بين المتقاربين . وهذا ما يمكن أن تؤديه هذه الأصول إلى حد كبير .

* * *

الأصل الأول

الإسلام نظام حياة شامل

الأصل الأول

الإسلام نظام حياة شامل

ما أحوج الدعوة الإسلامية فى أيامنا ، إلى توضيح مفاهيمها الأصلية للناس عامة ولأنصارها خاصة ، حتى لا يفهمها أحد على غير وجهها ، أو يحرفها عن حقيقتها ، أو يحاسبها على غير ما تدعو إليه ، أو ينحرف عنها لأمر يعتقد نسبتها إليه وهى منه براء .

لهذا نحاول أن نعرض بالشرح والتحليل لـ « الأصول العشرين » التى جعلها الإمام الشهيد حسن البنا أساساً لوحدة الفهم عند جنود الحركة الإسلامية ، والتى نهج فيها منهج الوسطية والتوازن ، الذى لا يغلو مع الغالين ، ولا يقصر مع المقصرين . ومن هنا حاول أن يصوغ هذه الأصول صياغة تتسم بالحكمة والاعتدال ، وأراد بها أن تكون « محوراً » يلتقى عليه أبناء الجماعات الدينية المختلفة التى تنتسب كلها إلى الإسلام ، ولكنها تختلف فيما بينها على فهم بعض النقاط فى الأصول أو الفروع ، اختلافاً قد يجرها إلى الخصام والتناحر والتنابز بالألقاب .

وربما كان منشأ هذا الخلاف فقد « الميزان » الذى يحتكمون إليه ، وعدم تحديد المصدر الذى يستمدون منه المعرفة والحكم ، أو الغلو فى تقدير بعض الأمور على حساب أمور أخرى ، أو اللدد فى الخصومة وسوء الظن بالآخرين ، أو عدم دقة التعبير فى المسائل ذات الوجهين أو الوجوه المتعددة .

لا نعجب إذا رأينا فى مصر مثلاً : جماعات « أنصار السُنَّة المحمدية » و « الجمعية الشرعية » و « شباب سيدنا محمد » و « جمعية الشبان المسلمين » وجماعات « الطُرق الصوفية » وغير ذلك . وليس بينهم جميعاً إلا التراشق بالتهم ، وادعاء كل منهم أنه على الحق وحده ، وأنَّ غيره على الباطل . بل ربما امتد هذا التراشق إلى حد تكفير بعضهم بعضاً .

* * *

● موقف التجمعات الدينية فى مصر عند ظهور دعوة البنا :

وكان بين هذه الجماعات كلها عيب مشترك ، هو اهتمام كل واحدة منها بناحية معيَّنة من رسالة الإسلام ، والتركيز عليها ، وإهمال النواحى الأخرى ، أو إسقاطها من الحساب ، وربما عابت الذين يشتغلون بها ويوجهون عنايتهم إليها .

فجماعة « أنصار السُنَّة المحمدية » تهتم بأمر « العقيدة » وتصفيتها من شوائب الشِرك الأكبر والأصغر ، ومحاربة المبتدعة الذين يسمونهم « القبوريين » ممن يقدسون « الأولياء » ويطوفون بـ « الأضرحة » وشن الغارة على الذين يؤولون آيات الصفات وأحاديث الصفات ، كالجمعية الشرعية وغيرها . وأكبر عدو لأنصار السُنَّة هو « المتصوفة » المحدَثون منهم والأقدمون ، المعتدلون والمتطرفون ، النظريون والعمليون .

و « الجمعية الشرعية » تعنى بالعبادة وبخاصة الصلاة علماً وعملاً ، وتهتم بأدائها على ما جاءت به السُنَّة ، وتحارب الابتداع فى ذلك وسعها ، وتنشئ مساجد خاصة بها . ولكنها تتبنى – مثل معظم علماء الأزهر – مذهب الأشاعرة فى تأويل آيات الصفات وأحاديثها . ولهذا شبَّت الحرب بينها وبين أنصار السُنَّة ، وكان لها لهيب واستعار دام سنوات طوالاً .

و « جمعية الشبان المسلمين » معنية بالجانب الثقافى ، فهى تدعو لإلقاء المحاضرات ، وعقد الندوات ، كما تهتم بالنشاط الرياضى ، الذى جذب إليها بعض الشباب .

و « شباب سيدنا محمد » عنوا بموضوع السفور والاختلاط ، وما يتعلق بالمرأة المسلمة ، وجعلوا ذلك شغلهم الشاغل ، ووقفوا ضد تيّارات التحلل والإباحية ، وتبنوا أكثر الأقوال تشدداً فى كل ما يتعلق بالمرأة والأسرة ، ولا سيما ما يتعلق بلقاء الرجل بالمرأة ، وموضوع اللباس والزينة ، وأنكروا على كل مَن قال بإباحة كشف الوجه والكفين ... وكان النشاط فى هذا الميدان هو أكبر همهم وغاية سعيهم .

وأما « الطُرق الصوفية » فبعض رجالها مخلصون صادقون ، وبعض منهم مقلّدون جاهلون ، وآخرون دجّالون مرتزقون ... وحتى المخلصون الصادقون منهم عاشوا فى زاوية ضيقة من زوايا الصرح الإسلامى الكبير ... وكل ما يهمهم هو الجانب الروحى التعبدى الفردى ، أو الاجتماعى المحدود بحدود الطريقة . وإن لم يخل ذلك كله – عند كثير منهم – من الابتداع فى العبادات ، والانحراف فى العقيدة ، والسلبية فى الأخلاق .

هذا هو موقف الجماعات الدينية ، وهذا ما كان يشغلها من قضايا جزئية ، عند ظهور دعوة الأستاذ البنا .

أما أمر الإسلام باعتباره شريعة ونظام حياة ، وأمر المسلمين باعتبارهم أُمة واحدة .

أما غلبة القوانين الوضعية على شريعة الإسلام ، وغلبة الأفكار الأجنبية فى فكرة الإسلام ، وغلبة الإباحية الغربية على تقاليد الإسلام ، وغلبة الاستعمار الصليبى على ديار الإسلام وأمة الإسلام .

أما الشريعة التى أهملت ، والحدود التى عُطِّلت ، والأمة التى مُزِّقت ، والخلافة التى حُطِّمت ... والدين الذى عُزِل عن توجيه الحياة وقيادة المجتمع ..

أما هذا كله ، فلم تشغل هذه الجماعات أنفسها به - على خطورته وأهميته - إلا بصورة ضئيلة ، وفى أحيان ومناسبات نادرة ، نتيجة لوجود بعض الأشخاص الأيقاظ الواعين الذين لم تكن تخلو من عدد منهم جماعة من هذه الجماعات .

كانت جُل هذه الجماعات الدينية - برغم نيَّاتها الطيبة ، وجهودها المشكورة- مع الإسلام أشبه بالعميان الذين صادفوا فيلاً ، فأمسك كل واحد منهم بجزء منه ظنه هو الفيل . فلما سُئِلوا عن وصف الفيل قال أحدهم : إنه عظم مدبب أملس، لأنه لم يمسك إلا بنابه ، وقال الثانى : بل هو جسم ضخم مفرطح ، لأنه قد أمسك ببطنه ، وقال ثالث : بل هو عمود أسطوانى قائم ، لأنه كان قد أمسك برجله . وقال رابع قولاً آخر ، لأنه أمسك بذيله ، وقال خامس غير ما قاله الأربعة ، لأنه أمسك بخرطومه ... وكل واحد من هؤلاء لم يصف الفيل ، وإن قال حقاً فى نفسه ، لأنه وصف ما عرفه منه فحسب ، ولو عرف الفيل كله كما خلقه الله ، وكما يعرفه أهل البصر لغَيَّر رأيه ، وعدَّل قوله ووصفه .

وكذلك كان هؤلاء ، ظن بعضهم أن الإسلام فى العقيدة وحدها ... وآخر فى العبادة أولاً ... وثالث فى الحشمة والعفاف قبل كل شئ ... ورابع فى طهارة القلب ... وكل واحد من هذه الأمور صحيح ، ولكنه ليس كل الإسلام ، إنما هو جانب واحد منه .

ولا مانع شرعاً ولا عقلاً من أن تهتم جماعة من الجماعات الإسلامية بجانب واحد من الإسلام ، تتخصص فيه ، وتركِّز عليه نشاطها وجهودها . ويكون الاختلاف بين بعضها وبعض ، اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد [1] . إنما الممنوع

(١) عرضت لتوضيح فكرة « اختلاف التنوع والتخصص » بين الجماعات الإسلامية فى أكثر من كتاب لى ، وخصوصاً : أين الخلل ؟ والصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم .

أن تنكر النظرة الشاملة للإسلام ، وأن تعتقد وتشيع أن الجانب الذى تعنى به هو الإسلام وحده . وأن تنكر على الآخرين جهودهم فى الميادين الآخرى ، وألا نتعاون معهم فى القضايا الكبرى .

* * *

● موقف الأحزاب السياسية :

وإلى جوار هذه الجماعات والفرق الدينية ، كانت هناك جماعات من نوع آخر. جماعات سياسية هى التى تسمى « الأحزاب » . كان يغلب على هذه الأحزاب - بصفة عامة - « الوطنية العلمانية » ، فقد سبقت « الوطنية » ظهور « القومية » وخصوصاً في مصر ، وإن لم تخل هذه الأحزاب من رجال متدينين فى خاصة أنفسهم وسلوكهم الشخصى . إذ لم تكن هذه الأحزاب عقائدية بالمعنى الذى عُرِف به بعض الأحزاب بعد ذلك فى بلاد عربية أخرى غير مصر .

وكان معظم قادة الأحزاب من الرجال الذين تثقفوا ثقافة أجنبية عن طريق البعثات إلى أوروبا ، أو عن طريق المدارس الأجنبية والتبشيرية فى أوطانهم نفسها ، أو عن طريق المنهج المسموم الذى وضعه « دنلوب » وأمثاله من المبشرين وأعوان المستعمرين المسيطرين على أزِمّة التعليم والتوجيه ... وكانت فكرة هؤلاء عن الإسلام صورة مطابقة من فكرة الأوربيين عن المسيحية ، فهو مجرد علاقة بين المرء وربه ، أى هو دين « لاهوتى » محض ، لا علاقة له بنظام الدولة ولا بشئون الحياة والسياسة والحكم ، فهذه تخضع لتطور الزمن ، وتجارب الفكر الإنسانى ، الذى يضيف كل يوم جديداً إلى تُراث الحضارة وحياة الإنسان .

كما أن الفكرة السائدة لدى جمهور المثقفين بالثقافة الحديثة : أن الدين والعلم طريقان متقابلان لا يلتقيان ، وأن الأمة الناهضة التى تريد التقدم بحق هى التى

تسلك سبيل العلم ، وتنشئ عليه أبناءها ، وتقيم بناءها ، وتدع الدين فى ركن قصى من حياتها [1] ، إن كان لا بد من بقائه !

* * *

● مقاومة التجزئة المصطنعة لدعوة الإسلام :

هذا هو الإطار الذى وُضِعَ فيه الإسلام ، وهذا هو الفهم السائد له حين ظهور دعوة الإخوان المسلمين . وكان على مؤسس الدعوة - رحمه الله - أن يواجه هذا الفهم القاصر لرسالة الإسلام ، وأن يُبرز الجانب الثقافى والاجتماعى والسياسى والجهادي منه .

وأن يقاوم هذه التجزئة المصطنعة لدعوته الشاملة . هذه التجزئة التى تريد أن تجعل الإسلام « نصرانية » أخرى تتخذ اسم الإسلام ، وهو منها براء .

لهذا أكد الإمام الشهيد هذا المعنى وكرره فى رسائله ومقالاته وأحاديثه ومحاضراته : معنى « شمول الإسلام » كما شرعه الله ورسوله . وتميَّز بذلك عن سائر الجماعات الأخرى حتى سمى ذلك « إسلام الإخوان المسلمين » كما فى رسالة « المؤتمر الخامس » .

ولا غَرو أن كان الأصل الأول من الأصول العشرين فى رسالة « التعاليم » - التى وضعها حسن البنا ليوضح فيها أركان الدعوة - يقرر ذلك بجلاء ووضوح فيقول : « الإسلام نظام شامل ، يتناول مظاهر الحياة جميعاً ، فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة ، وهو خُلُق وقوة أو رحمة وعدالة . وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء ، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة ، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواءً بسواء » .

---

(١) رددنا على هذا الفهم الخاطئ رداً علمياً مفصلاً فى كتابنا « بينات الحل الإسلامى » فصل « الدين فى عصر العلم » فليرجع إليه . نشرته « مكتبة وهبة » القاهرة و « مؤسسة الرسالة » ببيروت.

اهتمت دعوة الإخوان المسلمين بالتركيز على الجوانب الإسلامية التى أغفلت عمداً أو جهلاً من رسالة الإسلام مثل : الدولة والأمة والجهاد والاقتصاد والثقافة والقانون ... وما إلى ذلك ، بعد أن بذل الاستعمار جهوده الجبارة وأنفق ملايين طائلة ، وربّى تلاميذ مخلصين لأفكاره ، يعملون بكل ما أوتوا لتجريد الإسلام من معنى « الحكم والدولة » كما فعل على عبد الرازق فى كتابه « الإسلام وأصول الحكم » ، وكما طبّق ذلك كمال أتاتورك فى تركيا .. وتجريده من معنى « الجهاد والقوة » كما دعا إلى ذلك غلام أحمد القاديانى فى الهند ، ومَن تبعه من صنائع الإنجليز ، فقد كان كل هم «القاديانى» أن يثبت دعويين كبيرتين :

إحداهما : طاعة ولى الأمر ، ولو كان كافراً .

والثانية : إبطال الجهاد فى سبيل الله .

ولا يستفيد من هاتين الدعويين أحد إلا الاستعمار المتسلط على ديار المسلمين ، المتحكم فى رقابهم ، والمستلب لخيراتهم .

* * *

● لماذا تبنّى الإمام البنا فكرة الشمول ؟:

ولم يكن للإمام البنا وجماعته خيار فى تبنى هذا الشمول لمعنى الإسلام لأسباب ثلاثة :

● شمول تعاليم الإسلام :

الأول : أن الإسلام الذى شرعه الله لم يدع جانباً من الحياة دون آخر ، فهو - بطبيعته - شامل لكل نواحي الحياة ، مادية وروحية ، فردية واجتماعية ، حتى إن أطول آية فى كتاب الله أنزلت فى شأن من شئون الدنيا هو كتابة

« الديون » : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ .. ﴾ ... الآية [1] .

والقرآن الذى يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ... ﴾[2] هو نفسه الذى يقول فى نفس السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ [3] ، وهو الذى يقول فيها : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [4] ، ويقول فى ذات السورة : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ، وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ... ﴾ [5] عبر القرآن عن فرضية هذه الأمور كلها بعبارة واحدة : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ﴾ .

فهذه الأمور كلها مما كتبه الله على المؤمنين ، أى فرضه عليهم : الصيام من الأمور التعبدية ، والقصاص فى القوانين الجنائية ، والوصية فيما يسمى «الأحوال الشخصية » ، والقتال فى العلاقات الدولية .

وكلها تكاليف شرعية يتعبد بتنفيذها المؤمنون ، ويتقربون بها إلى الله ، فلا يُتصور من مسلم قبول فرضية الصيام ، ورفض فرضية القصاص أو الوصية أو القتال .

إن الشريعة الإسلامية حاكمة على جميع أفعال المكلفين ، فلا يخلو فعل ولا واقعة من الوقائع إلا ولها فيها حكم من الأحكام الشرعية الخمسة . كما قرر ذلك الأصوليون والفقهاء من كل الطوائف والمذاهب المنتسبة إلى الملة .

---

(١) البقرة ٢٨٢ — (٢) البقرة : ١٨٣ — (٣) البقرة : ١٧٨

(٤) البقرة : ١٨٠. — (٥) البقرة : ٢١٦

وقد دل على هذا الشمول القرآن والسُنّة ، فقد قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ ما ترك أمراً يُقرّبنا من الله إلا وأمرنا به ، ولا ترك أمراً يُبعدنا عن الله إلا نهانا عنه ، حتى تركنا على المحَجّة البيضاء : « ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك » (٢) .

فالإسلام هو رسالة الحياة كلها ، ورسالة الإنسان كله ، كما أنه رسالة العالَم كله ، ورسالة الزمن كله (٣) .

● الإسلام يرفض تجزئة أحكامه وتعاليمه :

الثانى : أن الإسلام نفسه يرفض تجزئة أحكامه وتعاليمه وأخذ بعضها دون بعض .

وقد اشتد القرآن فى إنكار هذا المسلك على بنى إسرائيل ، فقال تعالى فى خطابهم : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

ولما أحب بعض اليهود أن يدخلوا فى الإسلام بشرط أن يحتفظوا ببعض الشرائع اليهودية ، مثل تحريم يوم السبت ، أبى الرسول عليهم ذلك إلا أن يدخلوا فى شرائع الإسلام كافة .

---

(١) النحل : ٨٩

(٢) من حديث رواه ابن ماجه (٤٣) وأحمد فى مسنده والحاكم من طريقه عن العرباض بن سارية (المستدرك ١/٩٦ ، ٩٧) وابن أبى عاصم فى « السنة » بإسناد حسن كما قال المنذرى .

(٣) انظر فى ذلك : خصيصة « الشمول » من كتابنا « الخصائص العامة للإسلام » وكذلك : «الفهم الشمولى للإسلام والتحذير من تجزئة الإسلام » . من كتابنا : « الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى » ص ٦٨ - ٩٨ .

(٤) البقرة : ٨٥

وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [1] .

وخاطب اللّه سبحانه رسوله ﷺ فقال : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [2] .

فهنا يُحذِّر اللّه رسوله من غير المؤمنين أن يصرفوه عن بعض أحكام الإسلام، وهو خطاب لكل مَن يقوم بأمر الأمة من بعده .

والحقيقة أن تعاليم الإسلام وأحكامه فى العقيدة والشريعة والأخلاق والعبادات والمعاملات لا تؤتى أكلها إلا إذا أُخذَت متكاملة ، فإن بعضها لازم لبعض ، وهى أشبه « بوصفة طبية » كاملة مكوَّنة من غذاء متكامل ، ودواء متنوع ، وحمية وامتناع من بعض الأشياء ، وممارسة لبعض التمرينات .. فلكى تحقق هذه الوصفة هدفها ، لا بد من تنفيذها جميعاً . فإن ترك جزء منها قد يؤثر فى النتيجة كلها .

● الحياة وحدة لا تتجزأ ولا تنقسم :

الثالث : أن الحياة نفسها وحدة لا تنقسم ، وكلٌّ لا يتجزأ .

ولا يمكن أن تصلح الحياة إذا تولى الإسلام جزءاً منها كالمساجد والزوايا يحكمها ويوجهها ، وتُركت جوانب الحياة الأخرى لمذاهب وضعية ، وأفكار بَشرية ، وفلسفات أرضية ، توجهها وتقودها .

لا يمكن أن يكون للإسلام المسجد ، ويكون للعلمانية المدرسة والجامعة والمحكمة والإذاعة والتلفاز والصحافة والمسرح والسينما ، والسوق والشارع ، وبعبارة أخرى : الحياة كلها !

---

(١) البقرة : ٢٠٨ - يقول ابن كثير فى تفسير الآية : « يقول اللّه تعالى آمراً عباده المؤمنين به، المصدقين برسوله ، أن يأخذوا بجميع عرا الإسلام وشرائعه ، والعمل بجميع أوامره ، وترك جميع زواجره ، ما استطاعوا من ذلك »(تفسير ابن كثير جـ ١ / ٢٤٧) ط . دار إحياء التراث العربي ببيروت .
(٢) المائدة : ٤٩

كما لا يمكن أن يصلح الإنسان إذا كان توجيه الجانب الروحى له من اختصاص جهة كالدين ، والجانب المادى والعقلى له من اختصاص جهة أخرى كالدولة اللا دينية .

فالواقع أن لا مثنوية فى الإنسان ولا فى الحياة ، فليس فيه ولا فيها انقسام ولا انفصال .

إنه هو الإنسان بروحه ومادته ، فلا فصل ولا تفريق ، كما يؤيد ذلك العلم الحديث نفسه . وكذلك الحياة .

إن الإنسان لا ينقسم ، والحياة أيضاً لا تنقسم .

وكل الفلسفات والمذاهب الثورية أو « الإيديولوچيات » الانقلابية فى التاريخ وفى عصرنا ذات طابع كلى شمولى ، ولهذا ترفض تجزئة الحياة ، وتأبى أن تسيطر على جزء منها دون جزء ، بل لا بد أن تقودها كلها ، وتوجهها جميعاً وفقاً لفلسفتها . ونظرتها الكلية للوجود وللمعرفة وللقيم ، ولله والإنسان والتاريخ .

يقول أحد الاشتراكيين العرب المعروفين [1] فى تبرير هذا الاتجاه :

« إن فهم الاشتراكية على أنها نظام اقتصادى فحسب ، هو فهم خاطئ ؛ فالاشتراكية تقدّم حلولاً اقتصادية لمسائل كثيرة ، ولكن هذه الحلول جميعاً ليست إلا ناحية واحدة من نواحى الاشتراكية ، وفهمها على أساس هذه الناحية الواحدة فهم خاطئ لا ينفذ إلى الأعماق ، ولا يتعرف إلى الأسس التى تقوم عليها الاشتراكية ، ولا يتطلع إلى الآمال البعيدة التى تذهب إليها الاشتراكية » .

---

(١) هو الدكتور منيف الرزار - الذى انتخب زمناً ما أميناً عاماً لحزب البعث الاشتراكى العربى فى كتاب « دراسات فى الاشتراكية » الذى صدر عام ١٩٦٠ ، ويحمل مقالات لعدد من قادة « البعث » .

« .. فالاشتراكية مذهب للحياة ، لا مذهب للاقتصاد ، مذهب يمتد إلى الاقتصاد والسياسة والتربية والتعليم والاجتماع والصحة والأخلاق والأدب والعلم والتاريخ ، وإلى كل أوجه الحياة كبيرها وصغيرها .

وأن تكون اشتراكياً يعنى أن يكون لك فهم اشتراكى لكل هذا الذى ذكرت ، وأن يكون لك كفاح اشتراكى يضم كل هذا الذى ذكرت » .

ثم يؤكد الكاتب أن هذه النظرة الشاملة ليست مقصورة على الاشتراكية ، وإنما هى الأساس فى المذاهب الاجتماعية الأخرى .

ولقد برر الكاتب شمول المذاهب الاجتماعية ، واتساع نطاقها بحيث تتسع إلى كل المجالات ، وأن تضع الحلول لكل المشكلات بأن :

« .. سبب هذه النظرة الشاملة – أن الحياة نفسها شئ واحد .. تيار واحد لا يعرف هذا التقسيم الذى يخترعه عقلنا ، لكى يسهّل على نفسه إدراك حقائق الحياة ، ثم ينسى أنه هو نفسه الذى قام بهذا التقسيم ، ويظن أن الحياة كانت مقسمة هكذا منذ الأزل .

فالحياة لا تعرف شيئاً اسمه الاقتصاد ، منفصلاً عن شئ اسمه الاجتماع ، وشئ آخر اسمه السياسة .

الحياة شئ متكامل متصل ، ولكن عقلنا العاجز المغرم بالتحليل والدرس ، لن يتمكن من القيام بهذا التحليل والدرس ، إذا واجه الحياة ككل قائم بذاته ، فهو مضطر إلى أن يقسم الحياة إلى أوجه ، وإلى ألوان ، وإلى أنواع من العلاقات ، فيسمى بعضها اقتصاداً ، ويسمى بعضها الآخر سياسة ، وبعضها اجتماعاً ، وأخلاقاً ، وديناً ، وتاريخاً ، وأدباً ، وعلماً ... إلى آخر هذه السلسلة إن كان لها آخر ..

الحياة ... كالنهر ، شئ واحد متصل مستمر ... وكذلك حياة أى مجتمع ، كبير أو صغير - أمة أو أسرة ، حكومة أو حزب .

فموقف أى مجتمع إزاء الحريات السياسية يقرر موقفه من الاقتصاد ، وموقفه من النظم الاقتصادية يقرر موقفه من الحريات السياسية ، وكذلك من الاستعمار ومن الأخلاق ومن التعليم ومن الأدب ومن التاريخ ... إلى آخر هذه السلسلة التى لا تنتهى » .

ويخلص الكاتب من ذلك إلى تأكيد الصفة الشاملة للاشتراكية فيقول :

« .. بهذا المعنى ، تصبح كلمة الاشتراكية إذن كلمة لا تقتصر على التعبير عن حالة اقتصادية معيّنة فحسب ، بل هى تعبير عن نوع من الحياة بأكملها بجميع وجوهها » ا هـ .

هذه هى طبيعة الأيديولوچيات الانقلابية كلها ، فلماذا يُراد للإسلام وحده - وهو بطبيعته رسالة شاملة : عقيدة وشريعة وأخلاقاً وحضارة - أن يقصر رسالته على المساجد والمحاكم الشرعية ؟!

ولعله لو رضى بذلك ، ما تركوه يستقل بهذه المساجد يوجهها كما يريد ، ولا تلك المحاكم يقضى فيها بما يشاء [1] .

إن المسيحية التى يقول إنجيلها : « دع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » حين وجدت الفرصة والقوة ، لم يسعها أن تدع شيئاً لقيصر ، ولم تستطع إلا أن تسود ، وتوجه الحياة كلها الوجهة التى تؤمن بها ، مثل كل الأيديولوچيات الدينية والعلمانية قديماً وحديثاً .

---

(١) فى عدد من بلاد المسلمين اعتدت الحكومات العلمانية على الجزء الباقى لهم من التشريع وهو المتعلق بالأسرة أو ما سمى « الأحوال الشخصية » ، كما أن المسجد لم يعد حراً فى أن يقول كلمة الإسلام كما يشاء ، بل كما تشاء السلطة !!

فإذا كان هذا شأن المسيحية ، فكيف بالإسلام الذى يأبى أن يقسم الإنسان بين مادة وروح منفصلتين ، أو يقسم الحياة بين الله وقيصر ، وإنما يجعل قيصر وما لقيصر لله الواحد الأحد ؟!

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ (١).

﴿ أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٢)

* * *

• جوانب أساسية فى الإسلام الشامل :

أشار الإمام البنا فى الأصل الأول من أصوله العشرين إلى عدة جوانب ، اعتبرها أساسية فى الإسلام الشامل كما يفهمه وكما يؤمن به .

من هذه الجوانب :

١ - الجانب السياسى : وهو ما عبرَّ عنه بقوله : « فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة ».

٢ - الجانب الأخلاقى : وهو ما عبرَّ عنه بقوله : « وهو خُلق وقوة أو رحمة وعدالة » .

٣ - الجانب الثقافى أو العلمى .

٤ - وكذلك القانونى أو القضائى .

وهما ما عبَّر عنهما بقوله : « وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء » .

٥ - وكذلك الاقتصادى أو المادى : وهو ما عبَّر عنه بقوله : « وهو مادة وثروة أو كسب وغنى » .

---

(١) الأنعام : ١١٤   (٢) المائدة : ٥٠ .

٦ - الجانب الجهادى

٧ - وكذلك الجانب الدعوى .

وهما ما عبَّر عنهما بقوله : « وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة » .

٨ ، ٩ - وهذا إلى الجانبين الأساسيين فى كل دين ، وهو ما عبَّر عنهما بقوله : « كما هو عقيدة صادقة ، وعبادة صحيحة ، سواءً بسواء » .

وهذه الجوانب كلها واضحة تمام الوضوح فى ذهن الأستاذ البنا ، وهى من الثبوت لديه ، والرسوخ فى عقله وقلبه ، بحيث تُعَد من اليقينيات أو البديهيات الدينية ، والأدلة عليها من الكتاب والسُنَّة ، وهدى السَلَف ، وأقوال الأئمة ، أكثر من أن تُحصر .

ولهذا ظل يؤكدها كل التأكيد فى كل مناسبة ، ليتعلم الجاهل ، ويتنبه الغافل ، ويتذكر الناسى ، ويتثبّت المرتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً .

أكّدها فى بياناته ومؤتمراته العامة ، وفى لقاءاته وجلساته الخاصة ، وفى دروسه ومحاضراته ، وفى رسائله ومقالاته .

وما نُشِرَ من رسائل البنا أبين برهان على ما نقول .

نقرأ ذلك فى رسالة المؤتمر الخامس (وقد انعقد سنة ١٣٥٧ هـ) الذى تحدَّث فيها عن « إسلام الإخوان المسلمين » بشموله وتكامله [١] ، مبيناً شمول الفكرة ، وشمول الحركة أيضاً ، وتنوع أنشطتها التى استوعبت كل جوانب الحياة تقريباً.

وفى مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين الذى انعقد فى نفس السنة ، وقد تحدَّث فيه عن الإسلام الشامل ، وعن الدين والسياسة ، داخلية أو خارجية ، وعن سعة التشريع الإسلامى .

---

(١) انظر : نص كلام الإمام الشهيد فى الملحق آخر الكتاب .

وفى رسالة « نحو النور » الذى بعث بها إلى الملك فاروق ، وإلى رئيس حكومة مصر ، وإلى عدد من الملوك والرؤساء والشخصيات البارزة فى العالم الإسلامى (وذلك فى سنة ١٣٦٦ هـ) مبيِّناً فيها : أن الإسلام كفيل بإمداد الأمة الناهضة بكل ما تحتاج إليه .

وفى رسالة « مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى » وهى فى الأصل مقالات كتبها فى جريدة « الإخوان المسلمون » اليومية ، موجهة إلى المسئولين ورجال الهيئات الرسمية والنيابية والشعبية والاجتماعية وموجهى الجماهير .

ولن أتعرض هنا لشرح الجوانب التسعة - أو على الأقل السبعة الأول المقصودة بالذكر - فى الأصل الأول ، لأن شرحها يعنى شرح الإسلام كله .

وحسبى هنا أن أركِّز على جانبين على غاية من الأهمية ، ركَّز عليهما الشهيد البنا ، لما رأى جهل كثير من مسلمى عصره بهما ، وغفلتهم عنهما .

هذان الجانبان هما : الدولة والجهاد ، أو الجانب السياسي والجانب الجهادى، ومكانهما من الإسلام .

فلنخص كلا منهما بحديث ، على قدر ما يتسع المقام .

● مكانة الدولة من الإسلام :

« الإسلام دولة ووطن أو حكومة وأمة » هذا أول ما أكَّده حسن البنا فى بيان فكرة الشمول .

إن إعلان هذه الحقيقة وتأكيد هذه القضية : « أن الإسلام دولة ووطن كما هو عقيدة وعبادة » كان إحدى السمات البارزة التى تميَّزت بها الدعوة الإسلامية منذ ظهورها . أكَّد الشهيد البنا هذا المعنى فى جميع رسائله ، وكتاباته ومحاضراته. وكان لهذا التأكيد أسبابه - كما ذكرنا من قبل - .

فقد استطاع الاستعمار الصليبى الذى حكم بلاد المسلمين أن يغرس فى أفكار الكثيرين من أبناء المسلمين فكرة غريبة خبيثة مؤداها : أن الإسلام دين

لا دولة . « دين » بالمفهوم الغربى لكلمة « الدين » أما شئون الدولة فلا صلة له بها . وإنما ينظمها العقل الإنسانى وفقاً لتجاربه وظروفه المتطورة !

لقد أرادوا أن يُطبِّقوا على الإسلام فى الشرق ، ما طُبِّقَ على المسيحية فى الغرب . فكما أن النهضة هناك لم تتم إلا بعد التحرر من سلطان الدين ، فكذلك يجب أن تقوم النهضة فى شرقنا العربى الإسلامى على أنقاض الدين !

مع أن الدين هناك معناه الكنيسة وسلطة البابا ، واستبداد رجال الكهنوت بالضمائر والأرواح . فأين هذا من الدين هنا ، وليس فيه بابا ولا كهنوت ولا استبداد بالضمائر والأرواح ؟! [1]

على كل حال ، لقد نجح الاستعمار فى خلق فئات تؤمن أن الدين لا مكان له فى توجيه الدولة وتنظيمها ، وأن الدين شئ والسياسة شئ آخر ، وأن هذا يجرى على الإسلام ، كما جرى على المسيحية . وكان من الشعارات المضللة التى شاعت أن « الدين لله والوطن للجميع » ! وهى كلمة حق يُراد بها باطل ، ويمكن أن تقلب على كل الوجوه ، فنستطيع أن نقول : إن الدين لله والوطن لله ، أو : الدين للجميع والوطن للجميع ، أو : الدين للجميع والوطن لله !

وإنما مرادهم بكلمة « الدين لله » أن الدين مجرد علاقة بين ضمير الإنسان وربه ، ولا مكان له فى نظام الحياة والمجتمع .

وكان أبرز مثل عملى لذلك هو « الدولة العلمانية » التى أقامها كمال أتاتورك فى تركيا ، وفرضها بالحديد والنار والدم على مجموع الشعب التركى المسلم ، بعد تحطيم الخلافة العثمانية آخر حصن سياسى بقى للإسلام بعد صراع القرون ، مع الصليبية واليهودية العالمية .

---

(١) انظر : فصل « دين لا دولة » من كتاب « الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » للدكتور محمد البهى ، وانظر : فصل « دولة إسلامية لا دولة دينية » من كتابنا « بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربين » .

وقد أخذت الحكومات فى البلاد الإسلامية الأخرى تقلد تركيا الجديدة ، على درجات متفاوتة ، فأقصى الإسلام عن الحكم والتشريع فى الأمور الجنائية والمدنية ونحوها ، وبقى محصورا فيما سمى « الأحوال الشخصية » كما أقصى عن التوجيه والتأثير فى الحياة الثقافية والتربوية والاجتماعية إلا فى حدود ضئيلة. وفسح المجال كل المجال للتوجيه الغربى والثقافة الغربية والتقاليد الغربية .

ولم يخف بعض الزعماء السياسيين العرب إعجابهم باتجاه أتاتورك ، حتى إن زعيم حزب مصرى كبير معروف ، ورئيس وزراء حينذاك قال فى تصريح له : إننى معجب بلا تحفظ بكمال أتاتورك وفهمه لمعنى الدولة الحديثة .. ورد عليه المرشد الشهيد فى خطاب معروف ، نشرته جريدة « الإخوان المسلمون » اليومية فيما بعد .

وكان من أبرز المظاهر لنجاح الغزو الثقافى الغربى أن « الفكر العلمانى » الدخيل الذى ينادى بفصل الدين عن الدولة ، لم يقف عند الرجال « المدنيين » وحدهم ، بل تعدَّاهم إلى بعض الذين درسوا دراسة دينية فى معهد إسلامى عريق كالأزهر ، كما تجلى ذلك فى كتاب الشيخ على عبد الرازق « الإسلام وأصول الحكم » .

ومن الإنصاف أن نقول : إن هذا الكتاب قد أحدث ضجة هائلة حين صدروه ، فى المجتمع عامة ، وفى الأزهر خاصة ، وقد شُكِّلت هيئة من علماء الأزهر لمحاكمة مؤلفه ، فقضت بتجريده من شهادة العالمية ، وإخراجه من زُمرة العلماء ، كما رد عليه كثير من العلماء والمفكرين أزهريين وغير أزهريين [١] .

كان لا بد إذن من تأكيد الوقوف فى وجه العلمانية ودعاتها ومبرريها ، بتأكيد شمول الإسلام ، وإبراز هذا الجانب الحى من أحكامه وتعاليمه : جانب

---

(١) ممن ردوا عليه العلامة المجاهد محمد الخضر حسين ، شيخ الأزهر الأسبق فى كتاب سماه «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم » .

الدولة ، وتنظيمها وتوجيهها بأحكامه وآدابه . وإعلان أن ذلك جزء لا يتجزأ من نظام الإسلام .

* * *

• الدليل من نصوص الإسلام :

ولم يكن هذا ابتكاراً من الحركة الإسلامية ومؤسسها ودعاتها . بل هو ما تنطق به نصوص الإسلام القاطعة ، ووقائع تاريخه الثابتة ، وطبيعة دعوته الشاملة .

أما نصوص الإسلام فحسبنا منها آيتان من سورة النساء : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالعَدْلِ ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ، فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (١) .

فالخطاب في الآية الأولى للولاة والحكّام : أن يرعوا الأمانات ويحكموا بالعدل ، فإنّ إضاعة الأمانة والعدل نذير بهلاك الأمة وخراب الديار . ففي الصحيح : « إذا ضُيِّعَت الأمانة فانتظروا الساعة ». قيل : وكيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » (٢)

والخطاب في الآية الثانية للرعية المؤمنين : أن يطيعوا « أُولي الأمر » بشرط أن يكونوا « منهم » وجعل هذه الطاعة بعد طاعة اللّه وطاعة الرسول ، وأمر عند التنازع برد الخلاف إلى اللّه ورسوله ، أي إلى الكتاب والسُنّة . وهذا يفترض أن يكون للمسلمين دولة تهيمن وتُطاع ، وإلا لكان هذا الأمر عبثاً .

---

(١) النساء : ٥٨ - ٥٩

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم (حديث ٥٩ الفتح جـ ١٤١/١) عن أبي هريرة . وكرره في كتاب « الرقاق » .

وفى ضوء الآيتين المذكورتين ألّف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه المعروف « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية » والكتاب كله مبنى على الآيتين الكريمتين .

وإذا ذهبنا إلى السُنّة ، رأينا الرسول ﷺ يقول : « مَن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » [1] . ولا ريب أنّ من المحرّم على المسلم أن يبايع أى حاكم لا يلتزم بالإسلام . فالبيعة التى تنجيه من الإثم أن يبايع مَن يحكم بما أنزل الله .. فإذا لم يوجد ذلك فالمسلمون آثمون حتى يتحقق الحكم الإسلامى ، وتتحقق به البيعة المطلوبة . ولا ينجى المسلم من هذا الإثم إلا أمران : الإنكار – ولو بالقلب – على هذا الوضع المنحرف المخالف لشريعة الإسلام ..

والسعى الدائب لاستئناف حياة إسلامية قويمة ، يوجهها حكم إسلامى صحيح.

وجاءت عشرات الأحاديث الصحيحة عن الخلافة والإمارة والقضاء والأئمة وصفاتهم وحقوقهم من الموالاة والمعاونة على البر ، والنصيحة لهم وطاعتهم فى المنشط والمكره ، والصبر عليهم ، وحدود هذه الطاقة وهذا الصبر ، وتحديد واجباتهم من إقامة حدود الله ورعاية حقوق الناس ، ومشاورة أهل الرأى ، وتولية الأقوياء الأمناء ، واتخاذ البطانة الصالحة ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. إلى غير ذلك من أمور الدولة وشئون الحكم والإدارة والسياسة .

ولهذا رأينا شئون الإمامة والخلافة تُذكر فى كتب العقائد وأصول الدين ، كما رأيناها تُذكر فى كتب الفقه ، كما رأينا كتباً خاصة بشئون الدولة الدستورية والإدارية والمالية والسياسية ، كالأحكام السلطانية للماوردى ، ومثله لأبى يعلى ، والغياثى لإمام الحرمين ، والسياسة الشرعية لابن تيمية ، وتحرير الأحكام

---

(١) رواه مسلم عن ابن عمر فى كتاب الإمارة – حديث رقم (١٨٥١) .

لابن جماعة ، والخراج لأبى يوسف ، ومثله ليحيى بن آدم ، والأموال لأبى عبيد ، ومثله لابن زنجويه ... وغير ذلك مما ألّف ليكون مرجعاً للقضاة والحكّام كالطُرق الحكمية ، والتبصرة ، ومعين الحكّام . وما شابهها .

* * *

• الدليل من تاريخ الإسلام :

أما تاريخ الإسلام .. فينبئنا أن رسول الله ﷺ سعى بكل ما استطاع من قوة وفكر – مؤيّداً بهداية الوحى – إلى إقامة دولة للإسلام ، ووطن لدعوته ، خالص لأهله ، ليس لأحد عليهم فيه سلطان ، إلا سلطان الشريعة . ولهذا كان يعرض نفسه على القبائل ليؤمنوا به ويمنعوه ويحموا دعوته ، حتى وفّق الله « الأنصار » من الأوس والخزرج إلى الإيمان برسالته ، فلما انتشر فيهم الإسلام جاء وفد منهم إلى موسم الحج مكوّن من ٧٣ رجلاً وامرأتين ، فبايعوه – صلى الله عليه وسلم – على أن يمنعوه مما يمنعون أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم ، وعلى السمع والطاعة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. إلخ .. فبايعوه على ذلك .. وكانت الهجرة إلى المدينة ليست إلا سعياً لإقامة المجتمع المسلم المتميّز ، تشرف عليه دولة مسلمة متميزة .

كانت « المدينة » هى « دار الإسلام » وقاعدة الدولة الإسلامية الجديدة ، التى يرأسها رسول الله ﷺ فهو قائد المسلمين وإمامهم ، كما إنه نبيهم ورسول الله إليهم .

وكان الانضمام إلى هذه الدولة ، لشد أزرها ، والعيش فى ظلالها ، والجهاد تحت لوائها ، فريضة على كل داخل فى دين الإسلام حينذاك . فلا يتم إيمانه إلا بالهجرة إلى دار الإسلام ، والخروج من دار الكفر والعداوة للإسلام ، والانتظام فى سلك الجماعة المؤمنة المجاهدة التى رماها العالَم عن قوس واحدة .

يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وِلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾ (١) . ويقول فى شأن قوم : ﴿ فَلا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

كما نزل القرآن الكريم يندد أبلغ تنديد بأولئك الذين يعيشون مختارين فى دار الكفر والحرب ، دون أن يتمكنوا من إقامة دينهم وأداء واجباتهم وشعائرهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ ، قَالُواْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ، فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً ﴾ (٣) .

وعند وفاة النبى ﷺ كان أول ما شغل أصحابه رضى الله عنهم ، أن يختاروا « إماماً » لهم ، حتى إنهم قدّموا ذلك على دفنه – صلى الله عليه وسلم – فبادروا إلى بيعة أبى بكر ، وتسليم النظر إليه فى أمورهم ، وكذا فى كل عصر من بعد ذلك ، وبهذا الإجماع التاريخى ابتداءً من الصحابة والتابعين – مع ما ذكرنا من النصوص – استدل علماء الإسلام على وجوب نصب الإمام الذى هو رمز الدولة الإسلامية وعنوانها .

ولم يعرف المسلمون فى تاريخهم انفصالاً بين الدين والدولة إلا عندما نجم قرن العلمانية فى هذا العصر ، وهو ما حذر الرسول ﷺ منه ، وأمر بمقاومته كما فى حديث معاذ : « ألا إنّ رحى الإسلام دائرة ، فدوروا مع الإسلام حيث دار ،

---

(١) الأنفال : ٧٢

(٢) إن بديل الهجرة إلى الدولة المسلمة هو الإنضام إلى الجماعة المسلمة التى تعمل لإقامة دولة الإسلام فهو فريضة على كل مسلم بحسب وسعه – والآية من سورة النساء : ٨٩

(٣) النساء : ٩٧ – ٩٩

ألا إن القرآن والسلطان سيفترقان (أى الدين والدولة) فلا تفارقوا الكتاب . ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم ، فإن عصيتموهم قتلوكم ، وإن أطعتموهم أضلوكم » . قالوا : وماذا نصنع يا رسول الله ؟ قال : « كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم : نُشِروا بالمناشير ، وحُمِلوا على الخُشب . موت فى طاعة الله خير من حياة فى معصية الله » [١] .

* * *

• الدليل من طبيعة الإسلام :

أما طبيعة الإسلام ورسالته ، فذلك أنه دين عام ، وشريعة شاملة ، وشريعة هذه طبيعتها لا بد أن تتغلغل فى كافة نواحى الحياة ، ولا يتصوَّر أن تهمل شأن الدولة ، وتدعها للمتحللين والملحدين ، أو الفسقة ، يديرونها تبعاً للهوى .

كما إن هذا الدين يدعو إلى التنظيم وتحديد المسئولية ، ويكره الاضطراب والفوضى فى كل شئ ، حتى رأينا الرسول ﷺ يأمرنا فى الصلاة أن نسوِّى الصفوف وأن يؤمَّنا أعلمنا ، وفى السفر يقول : أمِّروا أحدكم .

يقول الإمام ابن تيمية فى « السياسة الشرعية » : يجب أن يُعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها . فإن بنى آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع ، لحاجة بعضهم إلى بعض ، ولا بد عند الاجتماع من رأس . حتى قال النبى ﷺ : « إذا خرج ثلاثة فى سفر ، فليؤمِّروا أحدهم » (رواه أبو داود من حديث أبى سعيد وأبى هريرة[٢]). وروى الإمام

---

(١) رواه إسحاق بن راهويه فى مسنده عن سويد بن عبد العزيز ، وهو ضعيف ، وأحمد بن منيع ورواته ثقات كما قال البوصيرى فى « الاتحاف » . انظر : المطالب العالية لابن حجر بتحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمى - نشر أوقاف الكويت جـ ٤ حديث (٤٤٠٨) ورواه الطبرانى ، وفيه يزيد بن مرثد لم يسمع من معاذ ، وثقه ابن حبان وغيره وضعفه جماعة ، وبقية رواته ثقات . انظر : مجمع الزوائد للهيثمى (٥ /٢٣٨) .

(٢) ورواه الطبرانى عن عبد الله ، ورجاله رجال الصحيح كما فى مجمع الزوائد (٥ / ٢٤٩).

أحمد عن عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ قال : « لا يحل لثلاثة أن يكونوا بفلاةٍ من الأرض إلا أمّروا عليهم أحدهم » فأوجب ﷺ تأمير الواحد فى الاجتماع القليل العارض فى السفر ، تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع .

« ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة ، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل ، وإقامة الحج والجُمَع والأعياد ، ونُصرة المظلوم ، وإقامة الحدود ، لا تتم إلا بالقوة والإمارة . ولهذا روى : « إن السلطان ظل الله فى الأرض » . ولهذا كان السّلف كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون : لو كانت لنا دعوة مجابة ، لدعونا بها للسلطان » [1] . وذلك لأن الله يُصلح بصلاحه خلقاً كثيراً .

ثم إن طبيعة الإسلام باعتباره منهجاً يريد أن يسود ويقود ويُوجّه الحياة ، ويحكم المجتمع ، ويضبط سير البَشر وفق أوامر الله ، لا يُظن به أن يكتفى بالخطابة والتذكير والموعظة الحسنة ، ولا أن يدع أحكامه ووصاياه وتعليماته فى شتّى المجالات إلى ضمائر الأفراد وحدها ، فإذا سقمت هذه الضمائر أو ماتت ، سقمت معها وماتت تلك الأحكام والتعاليم . وقد قال الخليفة الثالث رضى الله عنه : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

فمن الناس مَن يهديه الكتاب والميزان ، ومنهم مَن لا يردعه إلا الحديد والسنان . ولذا قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [2] .

---

(١) السياسة الشرعية ، ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية جـ ٢٨ ص ٣٩٠ ، ٣٩١

(٢) الحديد : ٢٥

قال ابن تيمية : فمن عَدَل عن الكتاب عُدِّلَ بالحديد ، ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف [1] .

وقال الإمام الغزالى : الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا يتم الدين إلا بالدنيا ، والملك والدين توأمان ، فالدين أصل ، والسلطان حارس ، وما لا أصل له فمهدوم ، وما لا حارس له فضائع ، ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان [2] .

إن نصوص الإسلام لو لم تجئ صريحة بوجوب إقامة دولة للإسلام ، ولم يجئ تاريخ الرسول وأصحابه تطبيقاً عملياً لما دعت إليه هذه النصوص - لكانت طبيعة الرسالة الإسلامية نفسها تحتم أن تقوم للإسلام دولة أو دار ، يتميَّز فيها بعقائده وشعائره وتعاليمه ومفاهيمه ، وأخلاقه وفضائله ، وتقاليده وتشريعاته .

فلا غنى للإسلام عن هذه الدولة المسئولة فى أى عصر ، ولكنه أحوج ما يكون إليها فى هذا العصر خاصة . هذا العصر الذى برزت فيه « الدولة الأيديولوچية » وهى الدولة التى تتبنى فكرة ، يقوم بناؤها كله على أساسها ، من تعليم وثقافة وتشريع وقضاء واقتصاد ، إلى غير ذلك من الشئون الداخلية والسياسية الخارجية . كما نرى ذلك واضحاً فى الدولة الشيوعية والاشتراكية . وأصبح العلم الحديث بما وفره من تقدم تكنولوچى فى خدمة الدولة ، وأصبحت الدولة بذلك قادرة على التأثير فى عقائد المجتمع وأفكاره وعواطفه وأذواقه وسلوكه بصورة فعَّالة ، لم يُعرف لها مثيل من قبل . بل تستطيع الدولة بأجهزتها الحديثة الموجهة أن تغيِّر قيم المجتمع ومُثُله وأخلاقه رأساً على عقب ، إذا لم تقم فى سبيلها مقاومة أشد .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٢٨ ص ٢٦٤

(٢) إحياء علوم الدين جـ ١/ ٧١ كتاب « العلم » .

إن دولة الإسلام « دولة فكرية » ، دولة تقوم على عقيدة ومنهج ، فليست مجرد « جهاز أمن » يحفظ الأمة من الاعتداء الداخلى أو الغزو الخارجى ، بل إن وظيفتها لأعمق من ذلك وأكبر . وظيفتها تعليم الأمة وتربيتها على تعاليم ومبادئ الإسلام ، وتهيئة الجو الإيجابى والمناخ الملائم ، لتحول عقائد الإسلام وأفكاره وتعاليمه إلى واقع عملى ملموس ، يكون قدوة لكل مَن يلتمس الهدى، وحُجّة على كل سالك سبيل الردى .

ولهذا يُعرِّف ابن خلدون « الخلافة » بأنها : حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ، ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة . فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به [1] .

ولهذا وصف الله المؤمنين حين يمكّن لهم فى الأرض ، وبتعبير آخر حين تقوم لهم دولة ، فقال : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [2] .

إن شعار دولة الإسلام ما قاله ربعى بن عامر لرستم قائد الفُرس : إنّ الله بعثنا لنُخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

ثم إن هذه الدولة الفكرية ليست ذات صفة محلية ، ولكنها دولة ذات رسالة عالمية ، لأن الله حمّل أمة الإسلام دعوة البَشرية إلى ما لديها من هدى ونور ، وكلّفها الشهادة على الناس ، والأستاذية للأمم ، فهى أمة لم تنشأ بنفسها ولا لنفسها فحسب ، بل أخرجت للناس ، أخرجها الله الذى جعلها خير أمة

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ صفحة ٥١٨ طبعة لجنة البيان العربى بتحقيق د . على عبد الواحد وافى .

(٢) الحج : ٤١

وخاطبها بقوله سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (١) .

ومن هنا وجدنا النبى ﷺ حين أتيحت له أول فرصة – بعد صلح الحديبية – كتب إلى ملوك العالم وأمراء الأقطار فى أركان الأرض يدعوهم إلى الله ، والانضواء تحت راية التوحيد ، وحمّلهم إثم أنفسهم وإثم رعيتهم إذا تخلّفوا عن ركب الإيمان ، وكان يختم رسائله بهذه الآية : ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) .

* * *

● حاجتنا إلى دولة تحتضن الإسلام :

إن أول ما تحتاج إليه الدعوة الإسلامية فى هذا العصر أن تقوم « دار الإسلام » أو « دولة الإسلام » تتبنى رسالة الإسلام عقيدة ونظاماً ، وحياة وحضارة . وتقيم حياتها كلها : المادية والأدبية ، على أساس من هذه الرسالة الشاملة ، وتفتح بابها لكل مؤمن يريد الهجرة من ديار الكفر والظلم والابتداع .

هذه الدولة المنشودة ضرورة إسلامية ، وهى أيضاً ضرورة إنسانية ، لأنها ستقدّم للبشرية المثل الحى ، لاجتماع الدين والدنيا ، وامتزاج المادة بالروح ، والتوفيق بين الرقى الحضارى ، والسمو الأخلاقى ، وتكون هى اللبنة الأولى لقيام دولة الإسلام الكبرى ، التى توحّد الأمة المسلمة تحت راية القرآن ، وفى ظل خلافة الإسلام . ولكن القوى المعادية للإسلام ، تبذل جهوداً جبارة مستميتة دون قيام هذه الدولة فى أى رقعة من الأرض ، وإن صغرت مساحتها وقلّ سكانها .

---

(١) البقرة : ١٤٣ (٢) آل عمران : ٦٤

قد يسمح الغربيون بدولة ماركسية ، وقد يسمح الشيوعيون بدولة ليبرالية ، ولكن لا هؤلاء ولا أولئك يسمحون بدولة إسلامية صحيحة الإسلام .

وحين تقوم حركة إسلامية ناجحة ، يُخشى أن تتحول إلى دولة ، سرعان ما توجَّه إليها قوى الكفر - العالمية والمحلية - ضرباتها المحمومة ، من تشريد وتجويع وتعذيب وتقتيل ، وتشويه وتمويه ، ولا تكاد تفيق من ضربة حتى يباغتوها بأخرى ، لتظل دائماً فى شغل بآلامها عن آمالها ، وبمتاعبها عن مطالبها ، وبجروحها عن طموحها .

* * *

● لو كانت لنا حكومة :

يقول الأستاذ البنا :

« لو كانت لنا حكومة إسلامية صحيحة الإسلام ، صادقة الإيمان ، مستقلة التفكير والتنفيذ ، تعلم حق العلم عظمة الكنز الذى بين يديها ، وجلال النظام الإسلامى الذى ورثته ، وتؤمن بأن فيه شفاء شعبها ، وهداية الناس جميعاً ... لكان لنا أن نطلب إليها أن تدعم الدنيا باسم الإسلام ، وأن تطالب غيرها من الدول بالبحث والنظر فيه ، وأن تسوقها سوقاً إليه بالدعوات المتكررة والإقناع والدليل والبعثات المتتالية ، وبغير ذلك من وسائل الدعوة والإبلاغ ، ولاكتسبت مركزاً روحياً وسياسياً وعملياً بين غيرها من الحكومات . ولاستطاعت أن تجدد حيوية الشعب ، وتدفع به نحو المجد والنور ، وتثير فى نفسه الحماسة والجد والعمل .

عجيب أن تجد الشيوعية دولة تهتف بها ، وتدعو إليها ، وتُنفق فى سبيلها ، وتحمل الناس عليها . وأن تجد الفاشستية والنازية أمماً تقدسها ، وتجاهد لها ، وتعتز باتباعها ، وتخضع كل النظم الحيوية لتعاليمها . وأن تجد المذاهب

الاجتماعية والسياسية المختلفة أنصاراً أقوياء ، يقفون عليها أرواحهم وعقولهم وأفكارهم وأقلامهم وأموالهم وصحفهم وجهودهم ، ويحيون ويموتون لها .

ولا نجد حكومة إسلامية تقوم بواجب الدعوة إلى الإسلام ، الذى جمع محاسن هذه النظم جميعاً وطرح مساوئها ، وتقدمه لغيرها من الشعوب كنظام عالمى فيه الحل الصحيح الواضح المريح لكل مشكلات البَشرية ، مع أن الإسلام جعل الدعوة فريضة لازمة ، وأوجبها على المسلمين شعوباً وجماعات قبل أن تُخلق هذه النظم ، وقبل أن يُعرف فيها نظام الدعايات :

﴿ وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

ولكن أنّى لحكّامنا هذا ، وهم جميعاً قد تربوا فى أحضان الأجانب ، ودانوا بفكرتهم ، على آثارهم يهرعون ، وفى مرضاتهم يتنافسون ؟ ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا إن الفكرة الاستقلالية فى تصريف الشؤون والأعمال لم تخطر ببالهم ، فضلاً عن أن تكون منهاج عملهم .

لقد تقدّمنا بهذه الأمنية إلى كثير من الحاكمين فى مصر ، وكان طبيعياً ألا يكون لهذه الأمنية أثر عملى . فإن قوماً فقدوا الإسلام فى أنفسهم وبيوتهم وشؤونهم الخاصة والعامة لأعجز من أن يفيضوه على غيرهم ، ويتقدموا بدعوة سواهم إليه ، وفاقد الشئ لا يعطيه .

ليست هذه مهمتهم أيها الإخوان ، فقد أثبتت التجارب عجزهم المطلق عن أدائها ، ولكنها مهمة هذا النشء الجديد ، فأحسنوا دعوته ، وجَدُّوا فى تكوينه ، وعلّموه استقلال النفس والقلب ، واستقلال الفكر والعقل ، واستقلال الجهاد والعمل ، واملأوا روحه الوثابة بجلال الإسلام وروعة القرآن ، وجندوه تحت لواء

---

(١) آل عمران : ١٠٤ .

محمد ورايته ، وسترون منه فى القريب الحاكم المسلم الذى يجاهد نفسه ويسعد غيره [1] .

* * *

● الإسلام والسياسة :

جاهد الأستاذ حسن البنا ، جهاداً كبيراً ، ليعلّم المسلمين فكرة « شمول الإسلام » ، وبعبارة أخرى : ليُعيد إليهم ما كان مقرراً وثابتاً طوال ثلاثة عشر قرناً ، أى قبل دخول الاستعمار ، والغزو الفكرى إلى ديارهم ، وهو : أن الإسلام يشمل الحياة كلها بتشريعه وتوجيهه : رأسياً منذ يولد الإنسان حتى يتوفاه اللّه . بل من قبل أن يولد ، وبعد أن يموت ، حيث هناك أحكام شرعية تتعلق بالجنين ، وأحكام تتعلق بالإنسان بعد موته .

وأفقياً ، حيث يوجه الإسلام المسلم فى حياته الفردية والأُسرية والاجتماعية والسياسية ، من أدب الاستنجاء إلى إمامة الحكم ، وعلاقات السلم والحرب .

وكانت نتيجة هذا الجهاد واضحة ، هى وجود قاعدة ضخمة تؤمن بهذا الشمول وتنادى بالإسلام عقيدة وشريعة ، وديناً ودولة ، فى كل أقطار الإسلام ، وتراجُع كثيرين من ضحايا الغزو الفكرى عما آمنوا به فى ظل وطأة الاستعمار الثقافى ، وبروز الصحوة الإسلامية على الساحة الفكرية والسياسية بصورة قلبت موازين القوى ، مما جعل الجهات الأجنبية الراصدة من الغرب والشرق ، تعقد الكثير من الحلقات والندوات والمؤتمرات لدراسة هذه الظاهرة الإسلامية الخطيرة وتنفق فى ذلك الأموال والجهود ، حتى بلغ عدد هذه المنتديات - فيما ذكر الأستاذ فهمى هويدى - مائة وعشرين .

وهذا ما جعل عملاء الغرب ، وعبيد أفكاره ، يحاولون إيقاف الفجر أن يطلع أو الشمس أن تبزغ ، وأن يعيدوا عجلة التاريخ إلى الوراء ، إلى عهد الاستعمار ليتصايحوا من جديد : لا سياسة فى الدين ، ولا دين فى السياسة !

---

(١) ص ١٩٦ ، ١٩٧ من مجموع رسائل الإمام الشهيد .

يريدون أن يعيدوها جذعة ، وقد فرغنا منها منذ نصف قرن ، حتى سمى بعض هؤلاء العبيد المساكين الإسلام الذى لم يعرف المسلمون غيره طوال عصوره - قبل عصر الاستعمار - الإسلام كما عرفه الفقهاء والأصوليون والمفسرون والمحدِّثون والمتكلمون من كل المذاهب ، والذى شرحوه وفصّلوه من كتاب الطهارة إلى كتاب الجهاد .. إسلام العقيدة والشريعة ، إسلام القرآن والسُنَّة ، سماه « الإسلام السياسى » [1] !! يريد أن يُكرِّه الناس فى هذا الإسلام بهذا العنوان ، نظرا لكراهية الناس للسياسة فى أوطاننا ، وما جرت عليهم من كوارث ، وما ذاقوا على يديها من ويلات !

ولكن ما حيلتنا إذا كان الإسلام - كما شرعه الله - لا بد أن يكون سياسياً ؟ ما حيلتنا إذا كان الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ لا يقبل أن تقسم الحياة والإنسان بين الله تعالى وقيصر ؟ بل يصر على أن يكون قيصر وكسرى وفرعون وكل ملوك الأرض عِبَاداً لله وحده !

يريدنا الكاتب المسكين أن نتخلى عن كتاب ربنا ، وسُنَّة نبينا ، وإجماع أُمتنا ، وهدى تراثنا ، لنتبنَّى إسلاماً حديثاً ، يرضى عنا السادة الكبار ، فيما وراء البحار !

إنه يريد « الإسلام الروحى » أو « الإسلام الكهنوتى » الذى يكتفى بتلاوة القرآن على الأموات ، لا على الأحياء ، ويتبرك بتزيين الجدران بآياته ، أو افتتاح الحفلات بقراءة ما تيسر منه ، ثم يدع قيصر يحكم بما يشاء ، ويفعل ما يريد !

إن الإسلام الذى جاء به القرآن والسُنَّة ، وعرفته الأمة سَلَفاً وخَلَفاً ، هو إسلام متكامل ، لا يقبل التجزئة .

---

(١) انظر الرد على هذا التهجم فى الجزء الثانى من كتابى « فتاوى معاصرة » تحت عنوان «الإسلام السياسى » .

إنه الإسلام الروحى ، والإسلام الأخلاقى ، والإسلام الفكرى ، والإسلام التربوى ، والإسلام الجهادى ، والإسلام الاجتماعى ، والإسلام الاقتصادى ، والإسلام السياسى .

إنه ذلك كله ؛ لأن له فى كل هذه المجالات أهدافاً وغايات ، كما أن له فيها كلها أحكاماً وتوجيهات ...

يقول الإمام البنا فى علاقة الدين بالسياسة :

قلّما تجد إنساناً يتحدث إليك عن السياسة والإسلام إلا وجدته يفصل بينهما فصلاً ، ويضع كل واحد من المعنيين فى جانب ، فهما عند الناس لا يلتقيان ولا يجتمعان ، ومن هنا سميت هذه جمعية إسلامية لا سياسية ، وذلك اجتماع دينى لا سياسة فيه ، ورأيتُ فى صدر قوانين الجمعيات الإسلامية ومناهجها « لا تتعرض الجمعية للشئون السياسية » .

وقبل أن أعرض إلى هذه النظرة بتزكية أو تخطئة ، أحب أن ألفت النظر إلى أمرين مهمين :

أولهما : أن الفارق بعيد بين الحزبية والسياسة ، وقد يجتمعان وقد يفترقان ، فقد يكون الرجل سياسياً بكل ما فى الكلمة من معان وهو لا يتصل بحزب ولا يمتُ إليه ، وقد يكون حزبياً ولا يدرى من أمر السياسة شيئاً ، وقد يجمع بينهما فيكون سياسياً حزبياً أو حزبياً سياسياً على حد سواء ، وأنا حين أتكلم عن السياسة فى هذه الكلمة فإنما أريد السياسة المطلقة ، وهى النظر فى شئون الأمة الداخلية والخارجية غير مقيَّدة بالحزبية بحال .. هذا أمر .

والثانى : أن غير المسلمين حينما جهلوا هذا الإسلام ، أو حينما أعياهم أمره وثباته فى نفوس أتباعه ، ورسوخه فى قلوب المؤمنين به ، واستعداد كل مسلم لتفديته بالنفس والمال ، لم يحاولوا أن يجرحوا فى نفوس المسلمين اسم الإسلام

ولا مظاهره وشكلياته ، ولكنهم حاولوا أن يحصروا معناه فى دائرة ضيقة تذهب بكل ما فيه من نواح قوية عملية ، وإن تُركت للمسلمين بعد ذلك قشور من الألقاب والأشكال والمظهريات لا تُسمن ولا تُغنى من جوع ... فأفهموا المسلمين أن الإسلام شئ والاجتماع شئ آخر ، وأن الإسلام شئ والقانون شئ غيره ، وأن الإسلام شئ ومسائل الاقتصاد لا تتصل به ، وأن الإسلام شئ والثقافة العامة سواه ، وأن الإسلام شئ يجب أن يكون بعيداً عن السياسة .

فحدثونى بربكم أيها الإخوان ، إذا كان الإسلام شيئاً غير السياسة وغير الاجتماع ، وغير الاقتصاد ، وغير الثقافة ، فما هو إذن ؟ ... أهو هذه الركعات الخالية من القلب الحاضر ، أم هذه الألفاظ التى هى كما تقول رابعة العدوية : استغفار يحتاج إلى استغفار ، ألهذا أيها الإخوان نزل القرآن نظاماً كاملاً محكمًا مفصلاً ﴿ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

هذا المعنى المتضائل لفكرة الإسلام ، وهذه الحدود الضيِّقة التى حُدد بها معنى الإسلام ، هى التى حاول خصوم الإسلام أن يحصروا فيها المسلمين ، وأن يضحكوا عليهم بأن يقولوا لهم : لقد تركنا لكم حرية الدين ، وأن الدستور ينص على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام .

أنا أعلن أيها الإخوان من فوق هذا المنبر بكل صراحة ووضوح وقوة ، أن الإسلام شئ غير هذا المعنى الذى أراد خصومه والأعداء من أبنائه ، أن يحصروه فيه ويقيدوه به ، وأن الإسلام عقيدة وعبادة ، ووطن وجنسية ، وسماحة وقوة ، وخُلقٌ ومادة ، وثقافة وقانون . وأن المسلم مطالَب بحكم إسلامه أن يعنى بكل شؤون أمته ، ومَن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

---

(١) النحل : ٨٩

وأعتقد أن أسلافنا رضوان الله عليهم ما فهموا للإسلام معنى غير هذا ، فبه كانوا يحكمون ، وله كانوا يجاهدون ، وعلى قواعده كانوا يتعاملون ، وفى حدوده كانوا يسيرون فى كل شأن من شؤون الحياة الدنيا العملية قبل شؤون الآخرة الروحية ، ورحم الله الخليفة الأول إذ يقول : « لو ضاع منى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله » ا هـ [1] .

ويقول العالِم المؤرخ الرصين الدكتور ضياء الدين الريس : فى كتابه « النظريات السياسية الإسلامية » [2] :

« لم يعد هناك شك فى أن النظام الذى أقامه رسول الله ﷺ والمؤمنون معه بالمدينة – إذا نظر إليه من وجهة مظهره العملى ، وقيس بمقاييس السياسة فى العصر الحديث – يمكن أن يوصف بأنه « سياسى » ، بكل ما تؤديه هاته الكلمة من معنى . وهذا لا يمنع أنه يوصف فى نفس الوقت بأنه « دينى » إذا كانت وجهة الاعتبار هى النظر إلى أهدافه ودوافعه ، والأساس المعنوى الذى يرتكز عليه .

فالنظام يمكن أن يوصف إذن فى وقت واحد بالوصفين ؛ وذلك لأن حقيقة الإسلام شاملة : تجمع بين شئون الناحيتين المادية والروحية ، وتتناول أعمال الإنسان فى حياتيه الدنيوية والأخروية . بل إن فلسفته عامة تمزج بين الأمرين ، ولا تعترف بالتمييز بينهما إلا من حيث اختلاف وجهة النظر . أما فى ذاتيتيهما فيؤلفان كُلاً أو وحدة منسَّقة ؛ وهما متلازمان لا يمكن أن يُتصور انفصال أحدهما عن الآخر . وهذه الحقيقة عن طبيعة الإسلام قد أصبحت من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى كبير عناء لإقامة البرهان . وهى مؤيَّدة من حقائق التاريخ ؛ وكانت عقيدة المسلمين فى كل العصور السالفة . وقد بدأ يدركها جمهور من

---

(١) من رسالة مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين .

(٢) ص ٢٧ – ٢٩

المستشرقين مع عدم قُربهم من بيئة الإسلام . ومع ذلك فهناك نفر من أبناء الإسلام ، ممن ينعتون أنفسهم بأنهم « مجدّدون » يجاهرون بإنكارهم لهذه الحقيقة ! وهم يدّعون أن الإسلام ليس إلا مجرد « دعوة دينية » [1] : يريدون بذلك أنه ليس إلا مجرد اعتقاد أو صلة روحية بين الفرد وربه ، فلا تعلق له إذن بهذه الشئون التى نصفها بأنها مادية فى هذه الحياة الدنيا . ومن بين هذه الشئون : مسائل الحرب والمال ، وفى طليعتها أمور السياسة . ومن أقوالهم : « إن الدين شئ والسياسة شئ آخر » .

وليس من المجدى ، من أجل الرد على هؤلاء ، أن نروى لهم أقوال علماء الإسلام ، فقد لا يستشعرون أنهم مقتنعون بما يقولون . ولا أن نبدأ بذكر حقائق التاريخ ، فقد يعمدون إلى المكابرة فيها ! ولكن يكفى أن نثبت جملة مما قال علماء الاستشراق فى هذا الصدد ، وقد بيّنوا آراءهم فى عبارات صريحة قاطعة ، لأن هؤلاء المجدّدين لا يستطيعون أن يزعموا أنهم أوثق منهم صلة بالعصر الحاضر . ولا أكثر قُدرة على استعمال أساليب البحث الحديثة . واستخدام الطرق العلمية . فهذه إذن طائفة من أقوالهم :

١- يقول الدكتور « فتزجرالد » (Dr. V. Fitzgerald) [2] :

« ليس الإسلام « ديناً » فحسب (A Religion) ، ولكنه « نظام سياسى أيضاً (A Political system) . وعلى الرغم من أنه قد ظهر فى العهد

---

(١) فى مقدمة المجاهرين بهذه الآراء والمدافعين عنها الأستاذ « على عبد الرازق » القاضى الشرعى السابق بالمنصورة ، ثم وزير الأوقاف فيما بعد - فى كتابه الذى نشره عام ١٩٢٥ بعنوان : « الإسلام وأصول الحكم » . وفوق هذه الردود التى نعرضها الآن ، سنعود إلى مناقشة آرائه والرد عليها بالتفصيل ، فى خلال الفصول القادمة . (انظر - بصفة خاصة - الفصل الرابع ، من كتابنا هذا . تحت عنوان : الرد على دعاوى بعض المعاصرين) من تعليق . د . الريس .

(٢) Muhammedan Law - ch, I., P. 1

الأخير بعض أفراد من المسلمين ، ممن يصفون أنفسهم بأنهم « عصريون » يحاولون أن يفصلوا بين الناحيتين – فإن صرح التفكير الإسلامى كله قد بُنِىَ على أساس أن الجانبين متلازمان ، لا يمكن أن يُفصل أحدهما عن الآخر » . ا هـ .

٢– ويقول الأستاذ « نللينو » (C. A. Nallino) [١] :

« لقد أسس « محمد » فى وقت واحد : ديناً (A Religion) ودولة (A State) ، وكانت حدودهما متطابقة طوال حياته » .

٣ – ويقول الدكتور « شاخت » (Dr. Schacht) [٢] :

« على أن الإسلام يعنى أكثر من دين : إنه يمثل أيضاً نظريات قانونية وسياسية ؛ وجملة القول إنه نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدولة معاً »

٤ – ويقول الأستاذ « ستروثمان » (R. Strothmann) [٣] :

« الإسلام ظاهرة دينية . سياسية : إذ أن مؤسسه كان نبياً . وكان سياسياً حكيماً ، أو « رجل دولة » .

٥ – ويقول الأستاذ « ماكدونالد » (D. B. Macdonald) [٤] :

« هنا – أى فى المدينة – تكوّنت الدولة الإسلامية الأولى ، ووضعت المبادئ الأساسية للقانون الإسلامى » .

---

(١) Cited by Sir T. Arnold in his Book : The Caliphate . P. 198 .

(٢) Encyclopaedia of Social Sciences . Vol. VIII P. 333 .

(٣) The Encyclopaedia of Islam , IV. P. 350 .

(٤) Development of Muslim Theology . jurisprudence , and Canstitution- al Theory . (New York 1903) p. 67 .

٦ - ويقول السير « توماس أرنولد » (Sir. T. Arnold) [١] :

« كان النبى . فى نفس الوقت ، رئيساً للدين ورئيساً للدولة » .

٧ - ويقول الأستاذ « جب » [٢] :

« عندئذ صار واضحاً أن الإسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية ، وإنما استوجب إقامة مجتمع مستقل ، له أسلوبه المعيَّن فى الحكم ، وله قوانينه وأنظمته الخاصة به » . أ هـ .

فمن لم يكن يقنعه إلا أقوال الغربيين فهاهى تخرس كل مكابر .

* * *

● الوطن والوطنية :

وهناك جزء آخر من الجانب السياسى أشار إليه الأستاذ البنا فى الأصل الأول ، وفصله فى رسائله الأخرى ، وهو ما يتعلق بالوطن والوطنية . فقد ذكر « الوطن » بجانب « الدولة » حين قال : الإسلام دولة ووطن .

والواقع أنه لا دولة بلا وطن . فمن مقوِّمات الدولة أن يكون لها أرض مستقلة محددة الأبعاد تسود فيها وتحكم . وهذه هى الوطن .

وبعض دعاة الوطنية اتهم دعاة الإسلام بأنهم لا يتحمسون للوطن ، والوطنية : وهذا ليس بصحيح . فإن أوطانهم جزء من أرض الإسلام أو « دار الإسلام » التى يدافعون عنها بالأنفس والأموال ، ويفدونها بالمهج والأرواح .

إنما الذى ينكرونه هو « العصبية الإقليمية » الضيقة . والمبالغة فى الوطنية بحيث تصبح بديلاً عن الدين . ويغدو الوطن « وثناً » يُعبد مع الله أو من دون الله ، وتمسى العاطفة الوطنية بديلاً عن العاطفة الدينية ، وبعبارة أدق : العاطفة

---

(١) The Caliphate . Oxford 1924, P. 30 .

(٢) Muhammedanism . 1949, P. 3 .

الإسلامية ، ويصبح الولاء للوطن لا لله ، والإقسام بالوطن لا بالله ، والبداية باسم الوطن لا باسم الله ، والعمل لوجه الوطن لا لوجه الله .

هذا هو الذى يُنكر من الوطنية وليس حب الوطن ولا الذود عنه ، ولا العمل على تحريره وتقدمه وازدهاره . وفى هذا يقول الأستاذ البنا فى رسالة « إلى الشباب » :

« يخطئ من يظن أن الإخوان المسلمين يتبرمون بالوطن والوطنية ، فالمسلمون أشد الناس إخلاصاً لأوطانهم وتفانياً فى خدمة هذه الأوطان ، واحتراماً لكل مَن يعمل لها مخلصاً ، وها قد علمت إلى أى حد يذهبون فى وطنيتهم وإلى أى عزة يبغون بأمتهم . ولكن الفارق بين المسلمين وبين غيرهم من دعاة الوطنية المجردة أن أساس وطنية المسلمين العقيدة الإسلامية . فهم يعملون لوطن مثل مصر ويجاهدون فى سبيله ويفنون فى هذا الجهاد لأن مصر فى أرض الإسلام وزعيمة أممه ؛ كما أنهم لا يقفون بهذا الشعور عند حدودها ، بل يشركون معها فيه كل أرض إسلامية وكل وطن إسلامى ، على حين يقف كل وطنى مجرد عند حدود أمته ، ولا يشعر بفريضة العمل للوطن إلا عن طريق التقليد أو الظهور أو المباهاة أو المنافع ، لا عن طريق الفريضة المنزَّلة من الله على عباده . وحسبك من وطنية الإخوان المسلمين أنهم يعتقدون عقيدة جازمة لازمة أن التفريط فى أى شبر أرض يقطنه مسلم ، جريمة لا تُغتفر ، حتى يعيدوه أو يهلكوا دون إعادته ، ولا نجاة لهم من الله إلا بهذا » . ا هـ [(١)] .

وفى رسالة أخرى – دعوتنا – يفصِّل الإمام البنا القول فى الوطنية تفصيلاً ، فقد كان الرجل حريصاً على تحديد المفاهيم الغامضة ، أو المحتملة لاختلاف الأفهام ، وعلى تفصيل المعانى والمصطلحات المجملة ، وضبط الكلمات الهلامية التى يفسرها كل فريق بما يمليه عليه هواه ، أو تبعيته لفكرة معيَّنة .

---

(١) من رسالة « إلى الشباب » ص ١٠٤ ، ١٠٥ من مجموع رسائل الإمام الشهيد ط . دار الدعوة بالإسكندرية .

بيّن في هذه الرسالة الموقف من الدعوات المختلفة التي طغت في هذا العصر ، ففرقت القلوب وبلبلت الأفكار . ومنها : الوطنية .

قال رحمه الله :

« افتتن الناس بدعوة الوطنية تارة والقومية تارة أخرى ، وبخاصة في الشرق ، حيث تشعر الشعوب الشرقية بإساءة الغرب إليها ، إساءة نالت من عزتها وكرامتها واستقلالها ، وأخذت من مالها ومن دمها ، وحيث تتألم هذه الشعوب من هذا النير الغربي الذي فُرِضَ عليها فرضاً ، فهي تحاول الخلاص منه بكل ما في وسعها من قوة ومنعة وجهاد وجلاد ، فانطلقت ألسن الزعماء ، وسالت أنهار الصحف ، وكتب الكاتبون ، وخطب الخطباء وهتف الهاتفون باسم الوطنية وجلال القومية .

حسن ذلك وجميل ، ولكن غير الحسن وغير الجميل أنك حين تحاول إفهام الشعوب الشرقية – وهي مسلمة – أن ذلك في الإسلام بأوفى وأزكى وأسمى وأنبل مما هو في أفواه الغربيين ، وكتابات الأوروبيين ، أبوا ذلك عليك ، ولجُّوا في تقليدهم يعمهون ، وزعموا لك أن الإسلام في ناحية ، وهذه الفكرة في ناحية أخرى ، وظن بعضهم أن ذلك مما يُفرِّق وحدة الأمة ، ويُضعف رابطة الشباب .

هذا الوهم الخاطئ كان خطراً على الشعوب الشرقية من كل الوجهات ، وبهذا الوهم أحببتُ أن أعرض هنا إلى موقف الإخوان المسلمين ودعوتهم من فكرة الوطنية ، ذلك الموقف الذي ارتضوه لأنفسهم ، والذي يريدون ويحاولون أن يرضاه الناس معهم .

إن كان دعاة الوطنية يريدون بها حب هذه الأرض وألفتها والحنين إليها والانعطاف نحوها ، فذلك أمر مركوز في فِطَرِ النفوس من جهة ، مأمور به في الإسلام من جهة أخرى ، وإن بلالاً الذي ضحى بكل شئ في سبيل عقيدته

ودينه ، هو بلال الذى كان يهتف فى دار الهجرة بالحنين إلى مكة ، فى أبيات تسيل رقة وتقطر حلاوة (١) :

ألا ليت شِعرى هل أبيتَنَّ ليلةً بوادٍ وحولى إذْخِرٌ وجليلُ ؟!

وهل أرِدَنْ يوماً مياه مجنةٍ وهل يبدُوَنْ لى شامة وطفيل ؟!

ولقد سمع رسول الله ﷺ وصف مكة من « أصيل » فجرى دمعه حنيناً إليها وقال : « يا أصيل ، دع القلوب تقر » .

وإن كانوا يريدون أنَّ من الواجب العمل بكل جهد فى تحرير البلد من الغاصبين وتوفير استقلاله له ، وغرس مبادئ العزة والحرية فى نفوس أبنائه ، فنحن معهم فى ذلك أيضاً ، وقد شدَّد الإسلام فى ذلك أبلغ التشديد فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَلِلَّه العزَّةُ وَلِرَسُوله وَلِلْمُؤْمنينَ وَلَكنَّ الْمُنَافقينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ، ويقول : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ (٣) .

وإن كانوا يريدون بالوطنية تقوية الرابطة بين أفراد القُطر الواحد ، وإرشادهم إلى طريق استخدام هذه التقوية فى مصالحهم ، فذلك نوافقهم فيه أيضاً ، ويراه الإسلام فريضة لازمة فيقول نبيه ﷺ : « وكونوا عباد الله إخواناً » (٤) ، ويقول القرآن الكريم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ ، إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٥) .

وإن كانوا يريدون بالوطنية فتح البلاد ، وسيادة الأرض ، فقد فرض ذلك الإسلام ووجَّه الفاتحين إلى أفضل استعمار وأبرك فتح ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ (٦) .

---

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم عن عائشة ، والشعر عند البخاري فقط .
(٢) المنافقون : ٨ — (٣) النساء : ١٤١
(٤) رواه أحمد ومسلم عن أبى هريرة كما فى صحيح الجامع الصغير .
(٥) آل عمران : ١١٨ — (٦) البقرة : ١٩٣

وإن كانوا يريدون بالوطنية تقسيم الأمة إلى طوائف تتناحر وتتضاغن وتتراشق بالسباب وتترامى بالتهم ويكيد بعضها لبعض ، وتتشيع لمناهج وضعية أملتها الأهواء وشكّلتها الغايات والأغراض ، وفسّرتها الأفهام وفق المصالح الشخصية ، والعدو يستغل كل ذلك لمصلحته ويزيد وقود هذه النار اشتعالاً يُفرِّقهم فى الحق ويجمعهم على الباطل ، ويُحرِّم عليهم اتصال بعضهم ببعض وتعاون بعضهم مع بعض ، ويحل لهم هذه الصلة به والالتفاف حوله ، فلا يقصدون إلا داره ولا يجتمعون إلا زواره ، فتلك وطنية زائفة لا خير فيها لدعاتها ولا للناس . فها أنتَ ذا قد رأيتَ أننا مع دعاة الوطنية ، بل مع غلاتهم فى كل معانيها الصالحة التى تعود بالخير على البلاد والعباد ، وقد رأيتَ مع هذا أن تلك الدعوى الوطنية الطويلة العريضة لم تخرج عن أنها جزء من تعاليم الإسلام .

● حدود وطنيتنا :

« أما وجه الخلاف بيننا وبينهم فهو أننا نعتبر حدود الوطنية بالعقيدة وهم يعتبرونها بالتخوم الأرضية والحدود الجغرافية ، فكل بقعة فيها مسلم يقول : « لا إله إلاَّ اللّه محمد رسول اللّه » وطن عندنا له حُرمته وقداسته وحبه والإخلاص له ، والجهاد فى سبيل خيره ، وكل المسلمين فى هذه الأقطار الجغرافية أهلنا وإخواننا ، نهتم لهم ونشعر بشعورهم ونحس بإحساسهم . ودعاة الوطنية فقط ليسوا كذلك ، فلا يعنيهم إلا أمر تلك البقعة المحدودة الضيِّقة من رقعة الأرض ، ويظهر ذلك الفارق العملى فيما إذا أرادت أُمة من الأمم أن تقوّى نفسها على حساب غيرها فنحن لا نرضى ذلك على حساب أى قُطر إسلامى ، إنما نطلب القوة لنا جميعاً ، ودعاة الوطنية المجرَّدة لا يرون فى ذلك بأساً ، ومن هنا تتفكك الروابط وتضعف القوى ويضرب العدو بعضهم ببعض .

● غاية وطنيتنا :

« هذه هى واحدة . والثانية أن الوطنيين فقط ، جلُّ ما يقصدون إليه ، تخليص بلادهم ، فإذا ما عملوا لتقويتها بعد ذلك ، اهتموا بالنواحى المادية كما تفعل أوروبا الآن ، أما نحن فنعتقد أن المسلم فى عنقه أمانة عليه أن يبذل نفسه ودمه وماله فى سبيل أدائها تلك هى هداية البَشر بنور الإسلام ، ورفع عَلمه خفَّاقاً على كل ربوع الأرض ، لا يبغى بذلك مالاً ولا جاهاً ولا سلطاناً على أحد ولا استعباداً لشعب ، وإنما يبغى وجه الله وحده وإسعاد العالم بدينه وإعلاء كلمته ، وذلك ما حدا بالسَلَف الصالحين رضوان الله عليهم إلى هذه الفتوح القدسية التى أدهشت الدنيا وأربت على كل ما عرف التاريخ من سرعة وعدل ونبل وفضل .

● الوحدة واختلاف الدين :

وأحب أن أنبهك إلى سقوط ذلك الزعم القائل إن الجرى على هذا المبدأ يمزق وحدة الأمة التى تتألف من عناصر دينية مختلفة ، فإن الإسلام وهو دين الوحدة والمساواة كفل هذه الروابط بين الجميع ما داموا متعاونين على الخير : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [1] . فمن أين يأتى التفريق إذن[2] ؟

أفرأيتَ بعد هذا كيف أننا متفقون مع أشد الناس غلواً فى الوطنية فى حب الخير للبلاد ، والجهاد فى سبيل تخليصها وخيرها وارتقائها ، ونعمل ونؤيد كل مَن يسعى فى ذلك بإخلاص ، بل أحب أن نتعلم أن مهمتهم إن كانت تنتهى بتحرير الوطن واسترداد مجده ، فإن ذلك عند الإخوان المسلمين بعض الطريق فقط

(١) الممتحنة : ٨

(٢) انظر كتابنا « غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى » وفصل « الحل الإسلامى والأقليات الدينية » من كتابنا : « بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربين » .

أو مرحلة منه واحدة ، ويبقى بعد ذلك أن يعملوا لتُرفع راية الوطن الإسلامى على كل بقاع الأرض ، ويخفق لواء « المصحف » فى كل مكان » [١] .

* * *

● الوطنية المصرية عند الإمام :

ويعود الأستاذ إلى فكرة « الوطنية » أو « المصرية » بمعنى الانتماء إلى مصر وحبها ، والعمل على تحريرها والنهوض بها . فيقول :

« فالمصرية أو القومية [٢] لها في دعوتنا مكانها ومنزلتها وحقها فى الكفاح والنضال .

إننا مصريون بهذه البقعة الكريمة من الأرض التى نبتنا فيها ونشأنا عليها . ومصر بلد مؤمن تلقّى الإسلام تلقياً كريماً ، وذاد عنه ، ورد عنه العدوان فى كثير من أدوار التاريخ وأخلص فى اعتناقه ، وطوى عليه أعطف المشاعر وأنبل العواطف ، وهو لا يصلح إلا بالإسلام ، ولا يداوى إلا بعقاقيره ، ولا يطب له إلا بعلاجه . وقد انتهت إليه بحكم الظروف الكثيرة حضانة الفكرة الإسلامية ، والقيام عليها ، فكيف لا نعمل لمصر ولخير مصر ؟ وكيف لا ندفع عن مصر بكل ما نستطيع ؟ وكيف يقال : إنَّ الإيمان بالمصرية لا يتفق مع ما يجب أن يدعو إليه رجل ينادى بالإسلام ويهتف بالإسلام ؟ إننا نعتز بأننا مخلصون لهذا الوطن الحبيب ، عاملون له ، مجاهدون فى سبيل خيره ، وسنظل كذلك ما حيينا معتقدين أن هذه هى الحلقة الأولى فى سلسلة النهضة المنشودة ، وأنها جزء من الوطن العربى العام ، وأننا حين نعمل لمصر نعمل للعروبة والشرق والإسلام .

---

(١) من رسالة « دعوتنا » ص ٢٤ - ٢٧ من مجموع الرسائل ط . دار الدعوة - الإسكندرية .

(٢) يلاحظ أن الأستاذ جعل المصرية مرادفة للقومية ، فلم تكن هذه الألفاظ قد تحدد معناها وتمايزها تماماً وإن كان فى رسالة « دعوتنا » قد فرق بينهما بوضوح . وسنذكر ذلك بعد .

وليس يضيرنا فى هذا كله أن نعنى بتاريخ مصر القديم ، وبما سبق إليه قدماء المصريين الناسَ من المعارف والعلوم . فنحن نرحب بمصر القديمة كتاريخ فيه مجد وفيه علم ومعرفة . ونحارب هذه النظرية بكل قوانا كمنهاج عملى ، يراد صبغ مصر به ودعوتها إليه ، بعد أن هداها الله بتعاليم الإسلام ، وشرح له صدرها ، وأنار به بصيرتها ، وزادها به شرفاً ومجداً فوق مجدها ، وخلّصها بذلك مما لاحق هذا التاريخ من أوضار الوثنية ، وأدران الشرك ، وعادات الجاهلية » [١] .

* * *

● المؤتمرات الوطنية العامة :

ولم يكتف حسن البنا بما ذكره فى رسائله عن الوطن والوطنية ، فكثيراً ما شرح ذلك فى لقاءاته الخاصة ، ومؤتمراته العامة .

وأشهد لقد حضرتُ أحد المؤتمرات العامة التى كان يعقدها الإخوان لشرح المطالب الوطنية فى عواصم الأقاليم المصرية . ويتحدث فيها الإمام الشهيد وصحبه . وذلك بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٤٥ ، وهبوب الشعوب للمطالبة بحريتها واستقلالها .

كان ذلك المؤتمر فى مدينة طنطا التى أدرس فيها . وقد تحدّث الأستاذ عن الوطن ، فقسّمه إلى ثلاثة أقسام . أو إلى ثلاث مراتب :

الوطن الصغير ، والوطن الكبير ، والوطن الأكبر .

فأما الوطن الصغير فهو « وادى النيل » شماله وجنوبه . شماله : مصر ، وجنوبه : السودان ، وكان الأستاذ البنا يقول : مصر هى السودان الشمالى ، والسودان هو مصر الجنوبية . نحن من السودان ، والسودان منا . وقد تحددت المطالب هنا فى أمرين : جلاء الإنجليز ، ووحدة الوادى .

---

(١) من رسالة « إلى الشباب » ص ١٢٩ من مجموع الرسائل .

وأما الوطن الكبير ، فهو « الوطن العربى » ، ولأول مرة أسمع تحديده من الشيخ رحمه الله : من المحيط الأطلسى إلى الخليج (الفارسى) - اتباعاً للمصطلح السائد فى ذلك الوقت - ولم تكن شاعت كلمة « الخليج العربى » هو فارسى من جهة ، وعربى من جهه أخرى . ولهذا اقترح بعضهم تسميته «الخليج الإسلامى » .

وهنا تحدَّث عن قضية فلسطين ، وأطماع الصهيونية فيها ، ولفت الأنظار إلى خطورتها . وكان دائم التنبيه على أهمية هذه القضية وما تحمله اليهودية من خطر على العرب والمسلمين فى الحاضر والمستقبل .

وأما الوطن الأكبر ، فهو : « الوطن الإسلامى » من المحيط إلى المحيط ، أى من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى ، من الدار البيضاء إلى جاكرتا .

بل كان البنا - رضى الله عنه - يعتبر « الأندلس » جزءاً من الوطن الإسلامى ، اغتُصِبَ منه ، بعد ثمانية قرون من الحضارة .

ومما لا أنساه فى هذا المؤتمر : أن أحد إخواننا الأقباط تكلم فى هذا المؤتمر عن قضية « قناة السويس » وحق مصر فيها ، وكان متخصصاً فى هذا المجال . وكان الإمام يصطحبه معه لشهود هذه المؤتمرات فى الأقاليم ، رمزاً للوحدة الوطنية ، ودليلاً على التسامح الإسلامى .

ومما أذكره عن هذا المؤتمر ما قاله الأستاذ عن الوطن الخاص أو الصغير (وادى النيل) وعن « الاحتلال الإنجليزى » وكيف نقاومه ؟ وما وسيلتنا فى ذلك . وذكر هنا عدة وسائل :

١ - المفاوضة . دون أى تفريط فى أى حق من حقوق الوطن شماله وجنوبه

٢ - المقاطعة إذا لم تجد المفاوضة ، لما هو معروف من تعنت الإنجليز وصلفهم . وهنا وضَّح الأستاذ أننا نحن أبناء مصر السودان قادرون على أن نعيش على

الكفاف . ونستغنى عن بضائع الإنجليز . وذكر هنا المثل العامى الذى يقول : «اللّى عنده العيش ويبلّه عنده الفرح كله » . وقال : سنخرج فتاوى ابن حزم من أنّ بدن العدو الكافر وعَرقه ولعابه نجس ... إلخ .

٣ - الجهاد . قال : فإن لم تجد المقاطعة ، فليس أمامنا إلا الجهاد . وسيقوم هذا الشعب عن بَكرة أبيه للدفاع عن حريته وكرامته ، منتظراً إحدى الحسنيين : النصر أو الجنة .

وهنا قال : فإنّ من الأدعية التى حفظتُها فى الصغر وكنتُ أرددها : اللّهم ارزقنى الحياة الحسنة ، والموتة الحسنة . وما معنى الموتة الحسنة ؟ هل هى أن يموت الإنسان على فراشه كما يموت العَيْر[1] ؟ إنى لا أجد لها معنى إلا أن يفصل هذا عن هذا فى سبيل اللّه ! - وأشار إلى رأسه وجسده رضى اللّه عنه - . وهنا ضجَّ المؤتمر كله بالتهليل والتكبير .

هذا التوجه ، وهذه التربية ، قد آتت أكلها فى عقول الإخوان ونفوسهم ، فكانوا هم السباقين إلى الدفاع عن الوطن ، معتبرين ذلك جزءاً من الإسلام ، وتعبيراً عن الإيمان . يستوى فى ذلك الوطن الصغير والوطن الكبير .

ففى فلسطين كانت لهم مواقفهم وبطولاتهم وشهداؤهم الذين رووا ثرى الأرض المقدسة بدمائهم ، وسجل بعض ذلك الأخ الفاضل الأستاذ كامل الشريف فى كتابه « الإخوان المسلمون فى حرب فلسطين » . وكان جزاؤهم عن ذلك « حل الجماعة » فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨

بل إن ما أصاب الإخوان من محن قاسية ، وضربات وحشية متتابعة ، كان له ارتباط بقضية فلسطين . حل الإخوان سنة ١٩٤٨ كان بناءً على طلب سفراء أمريكا وبريطانيا وفرنسا - بعد اجتماعهم فى معسكر « فايد » - واستجابة النقراشى وحكومته لهم . كما أثبتت ذلك الوثائق المؤكدة .

---

(١) العير : أى الحمار .

ومحنة ١٩٦٥ كان تمهيداً لنكبة ١٩٦٧

وموقف الإخوان فى معارك قناة السويس ، والتل الكبير مشهور غير منكور، وشهداؤهم - وخصوصاً من طلاًب الجامعة - معروفون (عمر شاهين والمنيسى وغانم) .

وقد شاركنا نحن أبناء الأزهر فى هذه المسيرة ، وأقمنا معسكرنا بجامعة الأزهر بالدرًاسة ، وسافرت كتيبتنا إلى « الشرقية » وودعناها فى احتفال مهيب بقاعة الإمام محمد عبده .

وقد سجل بعض ذلك الأستاذ كامل الشريف أيضاً فى كتابه عن « المقاومة السرية فى قناة السويس » ، والأستاذ حسن دوح فى كتابه عن « كفاح الشباب الجامعى فى قناة السويس » .

أما ما أدًاه الإخوان من خدمات لوطنهم فى المجالات الأخرى ، فشئ يجل عن الحصر . وكل مدينة أو قرية فى مصر تشهد بآثارهم التربوية والثقافية والاجتماعية . ومن الكتب الموثقة فى الجانب الاجتماعى : كتاب الأستاذ محمد شوقى زكى « الإخوان والمجتمع المصرى » .

وهذا الذى حدث فى مصر ، حدث مثله أو ما يقاربه فى الأقطار العربية الأخرى التى انتشرت فيها دعوة الإخوان المسلمين .

وبهذا ثبت بالقول والعمل ، وبالنظر والتطبيق : أنّ الإخوان المسلمين هم أصدق الناس فى حب أوطانهم ، والاستماتة فى خدمتها ، والذود عن حياضها بالمهج والأرواح ، لأنهم يفعلون ذلك بدافع الإيمان ، وموجب حكم الإسلام .

* * *

● الأمة فى الإسلام :

ويبقى فى الجانب السياسى جزء ثالث أشار إليه صاحب الأصول العشرين - بجانب الدولة والوطن - هو ما يتعلق بالأمة ، فالإسلام دولة ووطن أو حكومة وأمة .

فكما يعنى الإسلام بالسُلطة الحاكمة يعنى كذلك - بل قبل ذلك - بالأمة التى تختار السُلطة ، وتنبثق عنها الدولة .

وُلِدَ الإسلام فى جزيرة العرب ، وهى قائمة على القَبَلية والعصبية لها . فالقبيلة هى أساس الولاء ، ومصدر الاعتزاز والانتماء . فلا مكان لابن القبيلة إلا بها ، بل لا وجود له إلا بها ، فهى النَسب والحَسب ، وهى السُلطة والقوة ، وهى الاقتصاد والسياسة . يرضى برضاها ، ويغضب بغضبها ، أو بغضب شيخها ، ويتعصب لابن القبيلة محقاً كان أو مبطلاً ، شعار كل واحد فيها : «انصر أخاك - أى ابن القبيلة - ظالماً أو مظلوماً » بالمعنى الظاهرى للعبارة . وكل قبيلة تحاول أن تستعلى على القبيلة الأخرى ، وتنقص من أطرافها ، ولهذا كثرت الغارات من بعضهم على بعض ، حتى قال قائلهم :

وأحيــاناً على بكر أخينا   إذا ما لم نجـد إلا أخانا !

فلما جاء الإسلام نقلهم نقلة كبيرة فى عالَم الفكر ، وعالَم الشعور ، وعالَم الواقع ، نقلهم من سجن القَبَلية الضيقة ، إلى باحة الأمة الواسعة . وحذَّر أشد التحذير من الدعوة إلى العصبية بكل ألوانها ، وخصوصاً العصبية للقبيلة .

وفى الحديث : « ليس منا مَن دعا إلى عصبية ، أو قاتل على عصبية ، أو مات على عصبية » [1] .

---

(١) رواه أبو داود فى الأدب (١٥٢١) عن جبير بن مطعم . والحديث فيه ضعف ولكن يشهد له حديث مسلم الآتى بعده .

« مَن قاتل تحت راية عُمِّية ، يغضب لعَصَبة ، أو يدعو إلى عَصبة ، أو ينصر عَصبة ، فقُتِل ، فقتلة جاهلية » [1] .

وسُئل صلى الله عليه وسلم عن « العصيبة » فقال : « أن تعين قومك على الظلم » [2] ففسرَّها بأثرها فى واقع المجتمع القَبَلى ، فصاحب العصبية مع جماعة وإن جاروا وظلموا ، وضد خصومهم وأن بروا وأقسطوا أو أوذوا وظُلموا. على خلاف ماجاء به الإســلام من القيام بالقسـط ﴿ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ [3] ، ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُواْ ﴾ [4] .

وفى لحظة من لحظات الضعف البَشرى ، أطلت النزعة القَبَلية عند بعض الصحابة ، فتنادوا بأسماء قبائلهم : يا بنى فلان . ويا بنى علاَّن . فغضب النبى ﷺ أشد الغضب ، وقال : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظَهركم »؟! [5] وقال عن دعوة العصبية كلمته المعبرة : « دعوها فإنها منتنة » [6] .

لقد أراد الإسلام أن يبنى « أمة » على أساس العقيدة والفكرة ، وليس على أى أساس مادى أو أرضى مما يبنى عليه البَشر أممهم ، من عنصر أو لون أو لغة أو أرض ، مما ليس للإنسان فيه إرادة واختيار . بل هو قدر مفروض عليه ، فلم يختر الإنسان جنسه ولا لونه ولا لغته ولا أرضه التى وُلِدَ فيها . إنما ورث هذا كله دون أن يكون له رأى فيه .

أما العقيدة .. فالأصل فيها أنها من اختيار الإنسان ، وإيمان المقلِّد مشكوك فى قبوله ، بل مرفوض عند المحققين من علماء المسلمين .

أراد الإسلام للمسلمين أن يكونوا أمة تنتسب إلى الحق لا إلى زيد أو عمرو

---

(١) رواه مسلم فى الإمارة عن أبى هريرة (١٨٤٨) . وعُمِّية : الأمر لايستبين وجهه .

(٢) رواه أبو داود فى الأدب (٥١١٩) عن واثلة بن الأسقع ، وابن ماجه فى الفتن (٣٩٤٩).

(٣) النساء : ١٣٥

(٤) المائدة : ٨

(٥) ذكره ابن كثير فى تفسيره عن ابن إسحاق (٣٨٩/١)

(٦) رواه البخارى .

من البَشر ، فهى لا تقوم على رابطة عِرقية ولا لونية ولا إقليمية ولا طبقية . بل هى أمة عقيدة ورسالة قبل كل شئ .

هى أمة الإسلام ، أو أمة المسلمين كما قال تعالى : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (١) وهى أمة الإيمان أو أمة المؤمنين . ولهذا تُنادَى دائماً بـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

* * *

• أوصاف الأمة الأساسية فى القرآن :

أبرز ما يميِّز هذه الأمة عن غيرها من الأمم أوصاف أربعة ذكرها القرآن :

• الربانية :

الأول : الربَّانية – ربانية المصدر ، وربانية الوجهة . فهى أمة أنشأها وحى الله تعالى ، وتعهدتها تعاليمه وأحكامه ، حتى اكتمل لها دينها ، وتمت به نعمة الله عليها كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ (٢) .

فالله تعالى هو صانع هذه الأمة . ولهذا نجد القرآن الكريم يقول : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ (٣) . فهذا التعبير « جَعَلْنَاكُمْ » يفيد أنَّ الله هو جاعل هذه الأمة ومتخذها وصانعها .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (٤) فتعبير « أُخْرِجَتْ » يدل على أن هناك مُخرِجاً أخرج هذه الأمة ، فهى لم تظهر اعتباطاً ، ولم تكن نباتاً برياً ينبت وحده دون أن يزرعه زارع ، بل هو نبات

---

(١) الحج : ٧٨
(٢) المائدة : ٣
(٣) البقرة : ١٤٣
(٤) آل عمران : ١١٠ .

مقصود متعهَد بالعناية والرعاية . والذى أخرج هذه الأمة وزرعها وهيأها لرسالتها هو اللّه جَلّ شأنه .

فهى أمة مصدرها ربانى ، ووجهتها ربانية كذلك ، لأنها تعيش للّه ، ولعبادة اللّه ، ولتحقيق منهج اللّه فى أرض اللّه . فهى من اللّه وإلى اللّه [1] ، كما قال تعالى لرسوله : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ [2] .

● الوسطية :

والثانى : الوَسطية .. التى تؤهل الأمة للشهادة على الناس ، وتبوئها مكان الأستاذية للبَشرية . وفيها جاءت الآية الكريمة : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [3] .

وهى وَسطية شاملة جامعة : وَسطية فى الاعتقاد والتصور ، ووسطية فى الشعائر والتعبد ، ووَسطية فى الأخلاق والسلوك ، ووَسطية فى النظم والتشريع ، ووَسطية فى الأفكار والمشاعر .

وَسطية بين الروحية والمادية .. بين المثالية والواقعية .. بين الفردية والجَماعية [4] .

إنها الأمة التى تمثل « الصراط المستقيم » بين السُبل المتعرجة والملتوية ، صراط اللّه الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . صراط الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين ، لا صراط المغضوب عليهم ولا الضالين .

● الدعوة :

والوصف الثالث : الدعوة . فهى أمة دعوة ورسالة ، ليست أمة منكفئة على نفسها ، تحتكر الحق والخير والهداية لذاتها ، ولا تعمل على نشرها فى الناس.

---

(١) انظر : خصيصة « الربانية » فى كتابنا « الخصائص العامة فى الإسلام » ط . مكتبة وهبة ومؤسسة الرسالة .

(٢) الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣

(٣) البقرة : ١٤٣

(٤) انظر : خصيصة « الوسطية » من كتابنا المذكور .

بل الدعوة فريضة عليها ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع الإيمان بالله أساس تفضيلها على كل الأمم . كما قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) .

فهى لم ترجح سائر الأمم فى ميزان الله لسبب مادى أو عنصرى . كيف وهى تتكون من عناصر شتّى ، من كل مَن يدخل فى دين الله من أجناس البَشر عرباً أو عجماً ؟

إنما رجحت فى ميزان الحق ؛ لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

وقبل ذلك بآيات قال الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

ومعناها على أحد التفسيرين : اجعلوا من أنفسكم أمة الدعوة والأمر والنهى، فبهذا تستحقون أن يُقصر الفلاح عليكم . و « من » هنا تجريدية لا تبعيضية .

وعلى التفسير الآخر : هيئوا منكم طائفة متماسكة قادرة على الدعوة والأمر والنهى . ولتسقط فرض الكفاية عنكم ، وتكونوا أنتم عوناً لها .

إن رسالة الإسلام رسالة عالَمية ، رسالة لكل الأجناس ، ولكل الألوان ، ولكل الأقاليم ، ولكل الشعوب ، ولكل اللغات ، ولكل الطبقات . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ (٤) .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ (٥) .

---

(١) آل عمران : ١١٠ (٢) آل عمران : ١٠٤ (٣) الأنبياء : ١٠٧

(٤) الفرقان : ١ (٥) الأعراف : ١٥٨

وعلى الأمة المسلمة أن تدعو الناس جميعاً إلى الإسلام بألسنتهم حتى نبيّن لهم ، ونقيم الحُجّة عليهم ، وأن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، حتى لا تُلعن كما لُعِنَ الذين من قبلها حين فرّطوا فى هذا الواجب ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

● الوحدة :

والوصف الرابع : الوحدة . فالأمة التى يريدها الإسلام أمة واحدة ، وإن تكونت من عروق وألوان وطبقات ، فقد صهرها الإسلام جميعاً فى بوتقته ، وأذاب الفوارق بينها ، وربطها بالعروة الوثقى لا انفصام لها .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (٣) .

وكيف لا تكون هذه الأمة واحدة ، وقد وحّد الله عقيدتها وشريعتها ، وحّد غايتها ، ووحّد منهاجها ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (٤) .

أمة ربها واحد هو الله ، ونبيها واحد هو محمد ﷺ ، وكتابها واحد هو القرآن ، وقبلتها واحدة هى الكعبة البيت الحرام ، وشريعتها واحدة هى شريعة الإسلام ، ووطنها واحد هو « دار الإسلام » على اتساعها ، وقيادتها واحدة تتمثل فى «خليفة المسلمين » وأمير المؤمنين ، الذى يُجسّم الوحدة السياسية للأمة .

---

(١) المائدة : ٧٨ - ٧٩
(٢) الأنبياء : ٩٢
(٣) المؤمنون : ٥٢
(٤) الأنعام : ١٥٣

ولهذا رفض الإسلام أن يكون للمسلمين خليفتان فى وقت واحد ، حرصاً على وحدة الأمة ، ومنعاً لتفرق كلمتها ، وشتات أمرها .

ولهذا لا يجوز أن نقول فى تعبيرنا : الأمم الإسلامية ، بل الأمة الإسلامية ، فهى أمة واحدة كما أمر الله ، وليست أمماً متفرقة ، كما أراد الاستعمار .

يقول الله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

ولقد نبَّه القرآن على دسائس بعض أهل الكتاب الذين يسعون جهدهم لتمزيق شمل المسلمين ، وإثارة النعرات العصبية بينهم ، فقال تعالى محذراً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ (٣) .

وسبب نزول الآية الكريمة وما بعدها يدل على أن المقصود : يردوكم بعد وحدتكم متفرقين ، وبعد أخوَّتكم متعادين .

إن وحدة الأمة توجب عليها أن تجعل أخوتها الإسلامية فوق كل العصبيات ، فقد جعلها الله تعالى معبِّرة عن الإيمان ومجسدة له : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٤) .

وقال رسوله الكريم ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » (٥) أى لا يخذله عند الشدة أو عند الاعتداء عليه ، بل ينصره ويسانده . وهذا هو مقتضى الأخوة . وهو ما يؤكده الحديث الآخر : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، ويجير عليهم أقصاهم ، وهم يد على مَن سواهم » (٦) .

---

(١) آل عمران : ١٠٣ (٢) آل عمران : ١٠٥ (٣) آل عمران : ١٠٠

(٤) الحجرات : ١٠ (٥) متفق عليه عن ابن عمر كما فى صحيح الجامع الصغير .

(٦) رواه أبو داود فى الجهاد (٢٧٥١) وابن ماجه (٢٨٥٢) عن عبد الله بن عمرو .

ويُحذِّر الإسلام أبلغ التحذير من تعادى أبناء الأمة الواحدة إلى حد أن يحارب بعضها بعضاً، كما كانت تفعل قبائل الجاهلية . يقول ﷺ : « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » [١] ، « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر »[٢] .

* * *

● الإيمان بالأمة لا ينفى خصوصيات الأقوام :

ومن المفيد هنا أن ننبِّه على قضية ذات شأن ، وهى : أن الإيمان بـ « الأمة » المؤسسة على عقيدة الإسلام ، وأخوّة الإيمان ، والتى تضم جميع المسلمين فى رحابها حيث كانوا - لا ينبغى أن هناك خصوصيات معيَّنة لكل قوم ، يعتزون بها ، ويحافظون عليها ، ولا يُفرِّطون فيها ، ولا مانع من ذلك إذا لم تتحول إلى عصبية عِرقية تقاوم أخوة الإسلام ، أو إلى نزعة أنانية انفصالية تهدد وحدة دولة الإسلام .

ولقد ترك الرسول ﷺ وأصحابه من بعده القبائل تقاتل تحت راياتها ، تحت القيادة الإسلامية العامة ، ليكون ذلك مصدراً إضافياً لحماسهم وإقدامهم ، حتى لا يجلبوا العار على أقوامهم وعشائرهم .

إنَّ حب الرجل لقومه وعشيرته ورغبته فى جلب الخير لهم ، ودفع الشر عنهم ، نزعة فطرية لا غبار عليها ، ولا خطر فيها . كما لا خطر فى حبه لأسرته ، واهتمامه بها ، ولا غرو أن أمر الرسول بتعلم الأنساب لما وراءها من تواصل فى الأرحام وإن تباعدت : « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم » [٣] .

وفى الحديث : « خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم » [٤] .

---

(١) متفق عليه عن جرير بن عبد الله كما فى اللؤلؤ والمرجان (٤٤) وعن ابن عمر (٤٥) .
(٢) متفق عليه عن ابن مسعود كما فى اللؤلؤ والمرجان (٤٣) .
(٣) رواه الترمذى فى البِّر والصلة عن أبى هريرة وقال : غريب من هذا الوجه (١٩٨٠) وأحمد (٣٧٤/٢) والحاكم وصححه ووافقه الذهبى (١٦١/٤) .
(٤) رواه أبو داود من حديث سراقة بن مالك فى الأدب (٥١٢٠) وفيه أيوب بن سويد ، ضعيف .

إنَّ الخطر إنما يتمثل فيما إذا وقف قومه موقفاً معادياً للإسلام ، وحادوا الله ورسوله ، هنا تحرم الموادة والموالاة ، ولو كانت لأقرب الناس للإنسان ، كأمه وأبيه وزوجه وأخيه .

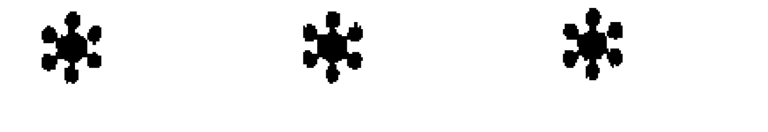
يقول تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُواْ آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ ، وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢)

لا بأس أن يحب الرجل أسرته ، ويحب قومه وعشيرته ، ولكن إذا تعارض ذلك مع حب الله ورسوله . فإن حب الله ورسوله أغلى من كل شئ . هنا يتغنى المسلم بقول القائل :

أبى الإسلام لا أب لى سواه   إذا افتخروا بقيس أو تميم !

هنا يقول المسلم ما قاله سلمان رضى الله عنه حين سُئل : ابن مَن أنت ؟ فقال: أنا ابن الإسلام !



(١) المجادلة : ٢٢   (٢) التوبة : ٢٣ - ٢٤

● القومية عند حسن البنا :

ولقد كان هذا المعنى واضحاً عند الإمام البنا ، فلم يرفض فكرة « القومية » رفضاً كلياً ، ولم يقبلها قبولاً مطلقاً ، بل فصّل فيها كما فصّل في « الوطنية» قال رضى الله عنه :

« إن كان الذين يعتزون بمبدأ « القومية » يقصدون به أن الأخلاف يجب أن ينهجوا نهج الأسلاف فى مراقى المجد والعظمة ومدارك النبوغ والهمة وأن تكون لهم بهم فى ذلك قدوة حسنة ، وأن عظمة الأب مما يعتز به الابن ويجد لها الحماس والأريحية بدافع الصلة والوراثة ، فهو مقصد حسن جميل نشجعه ونأخذ به ، وهل عُدَّتنا فى إيقاظ همة الحاضرين إلا أن نحدوهم بأمجاد الماضين؟

ولعل الإشارة إلى هذا فى قول رسول الله ﷺ : « الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » [1] فها أنت ذا ترى أن الإسلام لا يمنع من القومية بهذا المعنى الفاضل النبيل .

وإذا قُصِدَ بالقومية أن عشيرة الرجل وأمته أولى الناس بخيره وبره وأحقهم بإحسانه وجهاده فهو حق كذلك ، ومن ذا الذى لا يرى أولى الناس بجهوده قومه الذين نشأ فيهم ونما بينهم ؟

لعَمـرى لرهط المرء خير بقية عليه وإن عالوا به كل مركب

وإذا قُصِدَ بالقومية أننا جميعاً مبتلون مطالَبون بالعمل والجهاد فعلى كل جماعة أن تحقق الغاية من جهتها حتى تلتقى إن شاء الله فى ساحة النصر فنِعْمَ التقسيم هذا ، ومَن لنا بمن يحدو الأمم الشرقية كتائب كل فى ميدانها حتى نلتقى جميعاً فى بحبوحة الحرية والخلاص ؟

كل هذا وأشباهه في معنى القومية جميل معجب لا يأباه الإسلام ، وهو مقياسنا ، بل ينفسح صدرنا له ونحض عليه .

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة كما فى صحيح الجامع الصغير .

أما أن يُراد بالقومية إحياء عادات جاهلية درست ، وإقامة ذكريات بائدة خلت وتعفية حضارة نافعة استقرت ، والتحلل من عُقدة الإسلام ورباطه بدعوى القومية والاعتزاز بالجنس ، كما فعلت بعض الدول فى المغالاة بتحطيم مظاهر الإسلام والعروبة ، حتى الأسماء وحروف الكتابة وألفاظ اللغة ، وإحياء ما اندرس من عادات جاهلية ، فذلك فى القومية معنى ذميم وخيم العاقبة سئ المغبة ، يؤدى بالشرق إلى خسارة فادحة يضيع معها تراثه وتنحط بها منزلته ويفقد أخص مميزاته وأقدس مظاهر شرفه ونبله ، ولا يضر ذلك دين الله شيئاً : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أَمْثَالَكُم ﴾ (١) .

وأما أن يُراد بالقومية الاعتزاز بالجنس إلى درجة تؤدى إلى انتقاص الأجناس الأخرى والعدوان عليها والتضحية بها فى سبيل عزة أمة وبقائها ، كما تنادى بذلك ألمانيا وإيطاليا مثلاً ، بل كما تدَّعى كل أمة تنادى بأنها فوق الجميع،فهذا معنى ذميم كذلك ليس من الإنسانية فى شئ ، ومعناه أن يتناحر الجنس البَشرى فى سبيل وهم من الأوهام لا حقيقة له ولا خير فيه .

الإخوان المسلمون لا يؤمنون بالقومية بهذه المعانى ولا بأشباهها ولا يقولون فرعونية وعربية وفينيقية وسورية ولا شيئاً من هذه الألقاب والأسماء التى يتنابز بها الناس ، ولكنهم يؤمنون بما قال رسول الله ﷺ الإنسان الكامل بل أكمل معلم علَّم الإنسان الخير : « إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمَها بالآباء ، الناس لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » (٢) ما أروع هذا وأجمله وأعدله ، الناس لآدم فهم فى ذلك أكفاء ، والناس يتفاضلون بالأعمال فواجبهم التنافس فى الخير ؛ دعامتان قويمتان لو بنيت عليهما الإنسانية لارتفعت بالبَشر إلى علياء السموات ؛ الناس لآدم فهم إخوان فعليهم أن يتعاونوا وأن يسالِم بعضهم بعضاً ، ويرحم بعضهم بعضاً ، ويدل

---

(١) محمد : ٣٨

(٢) رواه أبو داود فى الأدب (٥١١٦) والترمذى فى المناقب وحسّنه (٣٩٥٠) وأحمد والبيهقى عن أبى هريرة . انظر : كتابنا (المنتقى من الترغيب والترهيب) ط . حديث (١٧٩٢).

بعضهم بعضاً على الخير ، والتفاضل بالأعمال . فعليهم أن يجتهدوا كل من ناحيته حتى ترقى الإنسانية ، فهل رأيت سمواً بالإنسانية أعلى من هذا السمو أو تربية أفضل من هذه التربية ؟

● خواص العروبة :

« ولسنا مع هذا ننكر خواصَّ الأمم ومميزاتها الخُلُقية ، فنحن نعلم أن لكل شعب مميزاته وقسطه من الفضيلة والخُلُق ، ونعلم أن الشعوب فى هذا تتفاوت وتتفاضل ، ونعتقد أن العروبة لها من ذلك النصيب الأوفى والأوفر ، ولكن ليس معنى هذا أن تتخذ الشعوب هذه المزايا ذريعة إلى العدوان ، بل عليها أن تتخذ ذلك وسيلة إلى تحقيق المهمة السابقة التى كُلِّفها كل شعب ، تلك هى النهوض بالإنسانية ، ولعلك لستَ واجداً فى التاريخ مَن أدرك هذا المعنى من شعوب الأرض كما أدركته تلك الكتيبة العربية من صحابة رسول الله ﷺ » ا هـ .

وبهذا لم ير الإمام البنا أن يقيم تعارضاً لاضرورة له بين العروبة والإسلام .

* * *

● مكانة الجهاد فى دعوة الإمام البنا :

قلنا : إنَّ من المبادئ التى حرص الإمام الشهيد رحمه الله على توضيحها وإثباتها مبدآن أساسيان هما : الدولة والجهاد . فقد حرصت القوى المعادية على حذفهما من الإسلام ، وذلك لتحكم الأمة بما تريد ، وكما تريد ، ما دام الإسلام مجرد دين لا دولة له ، ولتحكمها كذلك بلا مقاومة ، ما دام الإسلام مستأنساً بلا جهاد .

وقد تحدثنا عن فكرة « الدولة » ومكانتها فى الإسلام والآن نتحدث عن « الجهاد » الذى قامت دعوات مشبوهة ، بل مكشوفة القناع « كالقاديانية » وغيرها تنادى بإلغائه ، وأن عصره قد انتهى ، بعد زمن الصحابة . ولهذا رأينا حسن البنا يركِّز على هذا المبدأ فى الأصل الأول من أصوله العشرين ويُعلِّم جنود

حركته فى كلمات مركّزة أن الإسلام « جهاد ودعوة » أو « جيش وفكرة » كما هو « عقيدة سليمة ، وعبادة صحيحة سواءً بسواء » .

وفى الواقع أنّ دعوة الإخوان المسلمين التى أسسها حسن البنا قامت من أول يوم بجعل « الجهاد » شعاراً لها ، وطريقاً لتحقيق أهدافها . ولم تقتصر جهودها على التربية الروحية والخُلقية فحسب ، كما يفعل رجال التصوف - أعنى المخلصين المتبعين منهم - وإن عنيت بذلك كل العناية . ولم تكتف أيضاً بنشر العلم والوعى ، كما فعل بعض المصلحين الإسلاميين ، وإن اهتمت بذلك أبلغ الاهتمام .

فلا عجب أن كان شعار الجماعة وهتافها : « الجهاد سبيلنا ، والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا » .

كما أنّ البنا رحمه الله قال فى مذكراته منذ عهد مبكر : إنه أراد بدعوته أن تكون دعوة عامة قوامها العلم والتربية والجهاد وكانت التربية الجهادية إحدى شُعَب التربية الإخوانية الأساسية [١] .

وكان من الأوصاف البارزة لرجال الدعوة أنهم « رهبان الليل وفرسان النهار » .

وكانت شارة الإخوان عبارة عن « مصحف يحيط به سيفان » وتحته كلمة « وأعدوا » إشارة إلى الآية الكريمة من سور الأنفال : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ .. ﴾ [٢] . وإيماءً إلى أن الحق لا يعيش ما لم تسنده القوة .

ومن الكلمات التى يحفظها الإخوان : « الإسلام دين ودولة ، عبادة وقيادة ، صلاة وجهاد ، مصحف وسيف » .

---

(١) انظر : كتابنا « التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا » .

(٢) الأنفال : ٦٠.

ومن أناشيدهم :

هو الحق يحشد أجناده ... ويعتد للموقف الفاصل !

فصفوا الكتائب آساده ... ودكوا به دولة الباطل !

ويصف هذا النشيد رجال الدعوة بقوله :

رقاق إذا ما الدجى زارنا ... غمرنا محاريبنا بالحزن

وجند شـــــداد إذا رامنا ... لبأس رأى أُسُداً لا تهـنْ

أخا الكفر إما تبعت الهدى ... فأصبحت فينا الأخ المفتدى

وإما اعتديت فنحن الكماة ... نقاضى إلى الروع مَن هددا

إذن لأذقناك ضعف الحياة ... وضعف الممات ولن تُنجدا

فإنّا نصـول بروح الإله ... ونقفو ركاب نبـى الهدى

نوَّه الإمام الشهيد بالجهاد فى كل المناسبات ، وكتب فى ذلك رسالة نقل فيها أقوال العلماء من جميع المذاهب على وجوب الجهاد ، وبيَّن منه ما هو فرض كفاية وما هو فرض عين ، ثم قال :

« فها أنت ذا ترى من ذلك كله كيف أجمع أهل العلم مجتهدين ومقَلِّدين ، سَلَفيين وخَلَفيين ، على أن الجهاد فرض كفاية على الأمة الإسلامية ، لنشر الدعوة ، وفرض عين لدفع هجوم الكفار عليها . والمسلمون الآن كما تعلم مستذلون لغيرهم محكومون بالكفار ، قد ديست أرضهم وانتهكت حرماتهم ، وتحكم فى شؤونهم خصومهم ، وتعطلت شعائر دينهم فى ديارهم ، فضلاً عن عجزهم عن نشر دعوتهم . فوجب وجوباً عينياً لامناص منه أن يتجهز كل مسلم وأن ينطوى على نيَّة الجهاد وإعداد العُدَة له ، حتى تحين الفرصة ويقضى الله أمراً كان مفعولاً .

ولعل من تمام هذا البحث أن أذكر لك أن المسلمين فى أى عصر من عصورهم، قبل هذا العصر المظلم الذى ماتت فيه نخوتهم ، لم يتركوا الجهاد ولم يفرِّطوا فيه حتى علماؤهم والمتصوفة منهم والمحترفون وغيرهم ، فكانوا جميعاً على أُهبة الاستعداد ، كان عبد الله بن المبارك الفقيه الزاهد متطوعاً فى أكثر أوقاته بالجهاد ، وكان عبد الواحد بن زيد الصوفى الزاهد كذلك ، وكان شقيق البلخى شيخ الصوفية فى وقته يحمل نفسه وتلامذتَه على الجهاد .

وكان البدر العينى شارح البخارى الفقيه المحدِّث يغزو سنة ويدرس العلم سنة ويحج سنة ، وكان القاضى أسد بن الفرات المالكى أميراً للبحر فى وقته ، وكان الإمام الشافعى يرمى عشرة ولا يخطئ .

كذلك كان السَّلف رضوان اللّه عليهم ، فأين نحن من هذا التاريخ ؟ [1] » ا هـ .

● مكانة الجهاد فى الإسلام :

لم يكتف الإسلام من المسلم أن يعبد اللّه فى نفسه بالصلاة والصيام والدعاء والتسبيح بالعشىِّ والإبكار .

ولم يكفه منه أن يعبده تعالى ببذل جزء من ماله زكاة وطُهرة ومواساة للضعفاء .

أجل ، لم يكفه ذلك من المسلم ، ما دام فى الدنيا باطل يناوئ الحق ، وشر يغالب الخير ، وفساد يقف أهله فى وجه الإصلاح والمصلحين .

لم يرض من المسلم أن يلزم بيته ، ويغلق عليه بابه ، ويترك أبالسة الشر ، وطواغيت الباطل ، يعيثون فى الأرض فساداً ، ويفعلون بالحقائق والقيم الرفيعة ما تفعل النار بالهشيم ، ويكتفى هو بالحوقلة والاسترجاع ، والتسبيح والتهليل!

ولكنه فرض على المسلم عبادة يُسهِم بها فى مقاومة الشر ، كما أسهم بعبادة الزكاة فى فعل الخير .

تلك هى عبادة « الجهاد فى سبيل اللّه » .

أمر المسلم بهذه الفريضة كما أمر بالصلاة والصيام والزكاة ، سواءً بسواء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [2] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُواْ فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ [3] .

---

(١) من رسالة الجهاد للإمام البنا .

(٢) المائدة : ٣٥

(٣) الحج : ٧٧ - ٧٨

وجعل هذا الجهاد من دلائل الإيمان بالحق ، وأنكر على قوم زعموا الإيمان من غير استعداد للبذل والجهاد : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [١] ، ثم بيَّن تعالى مَن هم المؤمنون حقًا فقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [٢] .

وفى كل مجتمع يوجد أفراد ينزعون إلى الزهد فى الدنيا ، والزهد فى لقاء الناس ، والرغبة فى الانقطاع إلى العبادة .

ولكن نبى الإسلام يُوجِّه الطاقات الروحية عند هؤلاء إلى ساحة الجهاد الرحبة ، بدل الصومعة الضيِّقة .

وما أعظم الفرق بين صاحب الصومعة وصاحب الجهاد ! ذاك يفر من الشر خائفاً ، وهذا يهاجمه واثقاً . ذاك يعيش فى حدود نفسه ، وهذا يعيش لأبناء جنسه .

ولهذا أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه فقال : « وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإسلام » [٣] .

وقال أبو هريرة : « مَرَّ رجل من أصحاب النبى ﷺ على شِعْب (وهو المنفرج بين جبلين) فيه عيينة (أى عين صغيرة) من ماء عذبة ، فأعجبته لطيبها .

فقال : لو اعتزلتُ الناس فأقمتُ فى هذا الشعْب ؟ ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « لا تفعل ، فإنَّ مقام أحدكم فى

---

(١) الحجرات : ١٤ (٢) الحجرات : ١٥

(٣) رواه أحمد عن أبى سعيد الخدرى ورواته ثقات كما فى « التيسير » للمناوى ، وحسنه فى صحيح الجامع الصغير .

سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً !! ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟ اغزوا فى سبيل الله . مَن قاتل فى سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة » [1] – وفواق الناقة ما بين رفع اليد عن ضرعها وقت الحلب ووضعها ، وقيل : ما بين الحلبتين .

* * *

● سر فرضيّة الجهاد فى الإسلام :

إنّ المسلم صاحب رسالة عالَمية شاملة لا يصلح لحملها السلبيون والانعزاليون ، وإنما يحملها الإيجابيون المجاهدون ..

رسالة غايتها أن يسود الحق والعدل وتعلو كلمة الله فى أرضه .

رسالة جاءت لتقاوم الضعف فى النفوس ، والزيغ فى العقول ، والانحراف فى السلوك ، والبغى فى الجماعات ، والطغيان فى الحكومات ، والتظالم بين الأمم والشعوب .

رسالة جاءت لتحطم الوساطة المصطنعة بين الله وعباده ، وتحطم الفوارق المفتعلة بين الناس بعضهم وبعض .

رسالة تقول للضعفاء : شدوا سواعدكم . وتصيح فى الاذلاء : ارفعوا رؤوسكم . وتصرخ فى النائمين : هبوا من سباتكم . وتنادى المستعبَدين : حطموا قيودكم ، وتدعو المستكبرين : أن انزلوا من عروش كبريائكم .

تقول للأغنياء : أنفقوا من مال الله لا من أموالكم .

---

(١) رواه الترمذى وحسنه (. ١٦٥) والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبى (٢/٦٨) وفيه « ستين عاماً » لا « سبعين » . وكذا رواه أحمد عن أبى أمامة بأطول منه .

وتقول للحكّام : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالعَدْلِ ﴾ [1] .

وتقول للمتفاخرين بالأنساب : مَن بطّأ به عمله لم يُسرع به نَسبه .

وتقول للمتسلطين على الضمائر من أهل الكتاب : ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [2] .

وتقول للناس جميعاً : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُم عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [3] .

ومثل هذه الرسالة الشاملة ، لا بد أن يكون لها خصوم معاندون ، وأعداء مكابرون ، يدافعون عن مصالحهم ، وينافحون عن نفوذهم ووجودهم ، فلا غرابة أن يردوا حقها بالقوة ، ويصادروا دعوتها بالسيف ، ويصدوا دعاتها بالجبروت والعسف .

ولا يمكن لمثل هذه الرسالة العامة الخالدة أن تغمض العين على القذى ، وتسحب الذيل على الأذى ، وترضى من الغنيمة بالإياب ، وتدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله !! بله أن تدع قيصر يغتصب حق الله .

لقد آن الأوان أن يعلم الناس أن قيصر وما لقيصر لله الواحد القهّار . إن حكم الله لا يخضع لقيصر ، ولكن قيصر هو الذى يخضع لحكم الله .

وإذن فلا بد لهذه الرسالة ودعاتها من صدام مع الطغاة والمتجبرين ، مع القياصرة وأشباه القياصرة ، مع أدعياء الألوهية بالقول أو بالفعل .

فعلى المسلم أن يُعد العُدَّة ، ويأخذ الأهبة ، ويشهر سيف الحق ليقاوم الباطل، ويحمل معول التطهير ، ليهدم صروح التأله فى الأرض ، ويثل عروش الطغيان

---

(١) النساء : ٥٨ (٢) آل عمران : ٦٤ (٣) الحجرات : ١٣

والاستكبار ويرسى دعائم الحرية للعقائد كلها ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ (١) .

فمن فَهِمَ طبيعة الرسالة الإسلامية ، لم يصعب عليه تصور الجهاد فريضة من فرائضها ، وعبادة من عباداتها .

ولقد كان الله تعالى ينتقم لرسله والمؤمنين - قبل الإسلام - من الطغاة المكذّبين بنقم سماوية ، وخوارق كونية ، يُنزلها بأعدائه فتدمِّر عليهم ، وتجعلهم حصيداً خامدين . كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وفرعون وهامان وقارون وغيرهم . قال تعالى : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ، فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٢) .

ولكن الله فَضَّل هذه الأمة الخاتمة فلم يجعل الخوارق الكونية أساساً فى ثبوت رسالتها ، ولا فى نُصرة دعوتها (٣) . ولو شاء الله لخسف بأعدائها الأرض ، أو أسقط عليهم كِسَفاً من السماء ، وأراح رسوله والمؤمنين من عناء الجهاد .

بَيْدَ أن الله تعالى كرَّم هذه الأمة ، وأسبغ عليها فضله ، وأتم عليها نعمته ، فكلَّفها عبء الجهاد بالأموال والأنفس فى سبيل الله ، ومدافعة الباطل بما معها من حق ، مُعِدَّة لأعدائها ما استطاعت من قوة ، ومعتمدة بعد ذلك على الله تبارك وتعالى . ولهذا أنكر القرآن على فريق من الصحابة - رضوان الله عليهم

---

(١) الأنفال : ٣٩ (٢) العنكبوت : ٤٠ .

(٣) قلت : لم يجعلها أساساً ، بمعنى أنها ليست هى الأصل والعمدة فى ذلك ، وهذا لا ينفى أن تكون هناك خوارق كثيرة لتأييد نبوة رسول الله ﷺ بعد معجزته الكبرى وآيته العظمى ، وهى القرآن . بل هذا ما ثبت بالفعل ثبوتاً مستفيضاً قاطعاً . كما لا ينفى أن يقع كثير من الخوارق ، نصرة للمؤمنين ، منذ عهد النبى ﷺ ، مثل نزول الملائكة فى بدر والخندق وحنين ، وغير ذلك ، مما حفلت به الكتب والمصادر الموثقة .

– كراهيتهم للقاء المشركين في بدر ، فقال تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ من بَيْتكَ بالحَقِّ ، وَإِنَّ فَريقاً مِّنَ المُؤْمنينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادلُونَكَ في الحَقِّ بَعْدَ مَا تَبيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلى المَوْت وَهُمْ يَنْظُرونَ * وَإِذْ يَعدُكُمُ اللّهُ إحْدَى الطَّائفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَات الشَّوْكَة تَكُونُ لَكُمْ وَيُريدُ اللّهُ أَن يُحقَّ الحَقَّ بكَلمَاته وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافرينَ * ليُحقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ البَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ ﴾ (١) .

ثم إنَّ حياة الإنسان قائمة على الابتلاء ﴿ إنَّا خَلَقْنَا الإنْسَانَ من نُّطْفَة أَمْشَاجٍ نَّبْتَليه ﴾ (٢) ، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ في كَبَدٍ ﴾ (٣) وابتلاء الإنسان المؤمن أشد من غيره ، لأنه صاحب دعوة ، وحامل رسالة . وكذلك الجماعة المؤمنة المبتلاة بالجماعات الكافرة ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللّه النَّاسَ بَعْضَهُم ببَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمينَ ﴾ (٤) .

ومما لا ريب فيه أن التكليف الذى ميَّز اللّه به هذا النوع من المخلوقات – آدم وذُرِّيته – قائم على الابتلاء . وعلى أساسه قام الثواب والعقاب ، وقامت سوق الجنة والنار .

فقد شاء اللّه أن تقوم هذه الحياة ، وهذا الكون على الازدواج : الخير مشوب بالشر ، واللّذة ممزوجة بالألم ، والنهار يعقبه ليل ، وهكذا : فى الكون المادى نور وظلام . وفى العوالم الغيبية ملائكة وشياطين . وفى بنى الإنسان أخيار وأشرار وفى النفس الإنسانية خواطر يلهمها مَلَك ، ونزغات يوسوس بها شيطان .

وقد ابتلى اللّه المؤمنين بالكافرين ، كما ابتلى الكافرين بالمؤمنين ، وأعطى كُلاًّ منهم عُدَده وأسلحته وأعوانه ، وجعل بعضهم لبعض فتنة ليبلو أخبارهم ، ويمتحن

---

(١) الأنفال : ٥ – ٨ (٢) الإنسان : ٢

(٣) البلد : ٤ (٤) البقرة : ٢٥١

مَن يتولاه ويتولى رسله ممن يتولى الشيطان وحزبه . وفى ذلك يقول سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ (١) ، ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ (٢) ، ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴾ (٣) ، وهو تعالى عليم بذات الصدور ، ولا تخفى عليه خافية فى الأرض أو فى السماء . ولكنه يعامل عباده معاملة المختبر ، ليجزيهم بما عملوا لا بما علم أنهم سيعملونه ، ويقيم عليهم الحُجّة ، ويُبطل الأعذار والتعلات ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ (٤) .

● شبهة مردودة :

ولقد زعم بعض المتحاملين على الإسلام أن الإسلام شهر السيف ليُكره الناس على الدخول فيه ، ونسى هؤلاء أن طبيعة الإسلام ترفض الإيمان إذا لم يأت عن طريق الاقتناع والاختيار الحر . وقد قال الله تعالى لرسوله فى القرآن المكى : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٥) ، وقال تعالى فى القرآن المدنى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (٦) .

وما كان الجهاد في الإسلام إلا لرد العدوان وإزاحة قوى الطغيان ، ليختار الإنسان لنفسه ، ويقرر مصيره بإرادته دون فتنة ولا اضطهاد .

لقد بُعثَ رسول الله ﷺ بالرسالة الخاتمة ، وقام يدعو الناس إلى التحرر من العبودية لغير الله : من العبودية للأوثان ، ومن العبودية للطبيعة ، ومن العبودية لكل الأشياء ، فى الأرض أو فى السماء ، ومن العبودية للأشخاص أياً كانوا: مرئيين من الإنس ، أو مستورين من الجن ، أو الملائكة . ومن العبودية للأوهام والأهواء أياً كان نوعها .

---

(١) الفرقان : ٢٠ (٢) محمد : ٤ (٣) محمد : ٣١
(٤) الأنعام : ١٤٩ (٥) يونس : ٩٩ (٦) البقرة : ٢٥٦

دعا إلى ذلك المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى مما يُرى وما لا يُرى ، حتى عبدوا الأحجار ، واتخذوا أرباباً من العجوة إذا جاعوا أكلوها : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ [1] .

ودعا إلى ذلك أهل الكتاب الذين حرّفوا كتبهم ، وبدّلوا دينهم ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله .

ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يختم دعوته إلى رؤسائهم بهذه الآية الكريمة: ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾[2] .

ولكن المشركين وأهل الكتاب وقفوا فى وجه هذا الدعوة التحريرية المخلصة ، رغم أن صاحبها لم يدعهم إليها إلا بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولم يجادلهم إلا بالتى هى أحسن . تالياً عليهم : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [3] ، ﴿ لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[4] .

ولكن القوم أبوا أن يعاملوه بالمثل ، بل كان منطقهم يقول : لنا ديننا ، وليس لك دينك ، ولنا عملنا ، وليس لك عملك . من حق الحجر أن يُعبد ، وليس من حق الله أن يُوحَّد . لأهل الأوثان أن تكون لهم السُلطة والسيادة ، وليس لأهل التوحيد إلا المطاردة أو الإبادة .

ومن هنا كان الإيذاء والتعذيب ، وكانت المقاطعة والتجويع ، ثم كانت الهجرة والإخراج من الديار . ولا جريمة لصاحب الدعوة والمؤمنين معه إلا الإيمان بالله والدعوة إلى توحيده .

---

(١) الحج : ٧٣
(٢) آل عمران : ٦٤
(٣) الكافرون : ٦
(٤) يونس : ٤١

فلا عجب أن أذِنَ اللّه للرسول والمؤمنين أن يدافعوا عن أنفسهم ، ويذودوا عن دعوتهم وحريّاتهم ، بل حرية أهل الأديان جميعاً ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ، وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١) . وتتالت أوامر القرآن تعد الأمة للجهاد وقتال قوى الشرك كما تقاتل هى الإسلام ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

كما أن الجهاد فى الإسلام ليس لتحقيق هدف استعمارى أو مغنم دنيوى ، ولو شابه شئ من ذلك لم يعد جهاداً في سبيل اللّه ، وبطل أجر صاحبه ، بل كان من أول من تُسعَّر بهم النار .

فقد سئل رسول اللّه ﷺ عن الرجل يقاتل للمغنم ، أو حميّة (أى عصبية لقومه) أو ليُرى مكانه ، فكان جوابه القاطع : « مَن قاتل لتكون كلمة اللّه هى العليا فهو فى سبيل اللّه » (٣)

إن الجهاد هو ذروة سنام الإسلام . وهو جهاد فى سبيل اللّه لا فى سبيل الطاغوت . وهو جهاد لمقاومة طغيان الباطل لا لإكراه الناس على الحق ، وهو شُعبة من رسالة المسلم فى الحياة ، إلى جوار العبادة للّه ، وفعل الخير للناس. ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ .. ﴾ (٤) .

فلا عجب أن جعله الأستاذ البنا جزءاً أساسياً من أجزاء الإسلام « فهو جهاد ودعوة ، وجيش وفكرة » كما أنه عقيدة وعبادة سواءً بسواءٍ .

* * *

(١) الحج : ٣٩ - ٤٠ .
(٢) التوبة : ٣٦
(٣) متفق عليه عن أبى موسى
(٤) الحج : ٧٧ - ٧٨

ملاحظتان حول فكرة الشمول الإسلامى

وأود هنا أن أبرز ملاحظتين هامتين :

● الشمول والجزئيات :

الأولى : أن الشمول الإسلامى الذى يضم العقيدة والشريعة والأخلاق والآداب ، والتشريع والمعاملات ، والنُظم والحضارة .. إلخ - لا يعنى أنَّ الإسلام جاء بتفصيلات كاملة لجزئياتها ، وفصَّل كل شئ فيها تفصيلاً .

فهذا غير صحيح ، وهو ليس من الدين ولا الواقع فى شئ .

إن عناية الإسلام إنما هى بالكليات والمقاصد ، والقواعد الأساسية ، والأحكام الضابطة للأمور التى من شأنها الثبات ، ولو اختلفت الأزمان والبيئات والأحوال .

وفيما عدا ذلك ، يتخذ الإسلام أحد طريقين :

١ - إما أن يترك الأمر للناس ، ويسكت عن الحكم فيه ، رحمة بهم ، وتوسيعاً عليهم ، من غير نسيان ولا إهمال ، وهذه هى المنطقة التى سميناها « منطقة العفو » أخذاً من الحديث النبوى الذى رواه أبو الدرداء عن النبى ﷺ : « ما أحلَّ اللّه فى كتابه فهو حلال ، وما حرَّم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من اللّه عافيته ، فإنَّ اللّه لم يكن لينسى شيئاً ، ثم تلا : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ (١) .

وهنا تختلف اجتهادات الفقهاء لملء هذه المنطقة بما لديهم من أدوات الاجتهاد، إما عن طريق القياس على المنصوص عليه بشروطه ، أو بطريق

---

(١) مريم : ٦٤ . والحديث رواه البزار ورجاله ثقات كما قال الهيثمى (٥٥/٧) والحاكم وصححه (٣٧٥/٢) ووافقه الذهبى .

الاستصلاح ، أو الاستحسان أو الاستصحاب أو غير ذلك من الأدلة التبعية ، التى أخذ بها مَن أخذ ، ورفضها من رفض ، وتوسع فيها قوم ، وضيَّق آخرون .

٢ - وإما أن ينص عليها نصاً إجمالياً ، على معنى أنه لا يتعرض للجزئيات والتفصيلات الكثيرة المتنوعة ، والمختلفة باختلاف الزمان والمكان والعُرف والحال ، ولهذا عُرِفَ باستقراء أحكام الشريعة ونصوصها : أنها تُفصِّل فيما شأنه الثبات وتُجمل فيما شأنه التغير .

ولهذا نجد موضوعاً مثل شئون الأسرة من زواج وطلاق ومواريث ، ونحوها ، فيه كثير من التفصيل فى أحكامه فى القرآن والسُنَّة ، لأن شأن الأسرة هو الثبات ، وعدم الخضوع للتقلبات والتغيرات .

على حين نجد موضوعاً مثل نظام الحكم ، وما يتعلق بتكوين الحكومة وشكلها ، وكيفية الشورى ... إلخ ... جاء فى الإسلام مجملاً غير مفصَّل ، لأن مثل هذا الموضوع قابل للتطور والتغير بتغير الزمان والمكان ، وأحوال الإنسان ، فالإلزام بصور أو أحكام مفصَّلة فيه يعوق انطلاق المجتمع ، ويُجمِّد حركته ، ويُقيِّد حريته .

* * *

الشمول لا يعنى إهمال مراتب الأعمال

والملاحظة الثانية : أن شمول الإسلام للعقائد والعبادات والأخلاق والآداب والمعاملات والنظم الاجتماعية المختلفة ، لا يعنى أن هذه الأمور كلها فى مرتبة واحدة ، بل هى متفاوتة بيقين فى منزلتها من الدين ، كما أن فى داخل كل منها ما يُعَد من الأصول ، وما يُعَد من الفروع ، ما هو من الأركان ، وما هو من المكملات ، ما هو من الفرائض وما هو من النوافل ، ما هو قطعى وما هو ظنى ، وما هو متفَق عليه وما هو مختلَف فيه ، ما هو فى مرتبة الضروريات ، وما هو فى مرتبة الحاجيات ، وما هو فى مرتبة التحسينات ، على حد تقسيم الأصوليين .

وهذا أمر جد مهم ، حتى يأخذ كل عمل مرتبته ، وتأخذ كل مرتبة حكمها ، ولا نذيب الفواصل بين الأعمال بعضها وبعض ، كما يفعل بعض الناس ، الذين يعاملون الفروع معاملة الأصول ، والسُنَن معاملة الفرائض ، والمكروهات كالمحرَّمات ، والأمور المختلف فيها كالأمور المتفَق عليها ، والظنيات كالقطعيات ، ولهذا تضطرب أحكامهم ، ويختلط عليهم الأمر ويبعدون عن سواء السبيل .

وهذا أمر نبهتُ على ضرورة الالتفات إليه فى أكثر من كتاب لى ، وخصوصاً فى كتابى « الصَحْوَة الإسلامية بين الجحود والتطرف » وقد سميته فيه « فقه مراتب الأعمال » الذى فرَّط فيه المسلمون فى الأعصار الأخيرة ، وأغفلوا فيه حفظ « النسب الشرعية » بين الأعمال بعضها وبعض .

كما أكدتُ ذلك فى كتابى « أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة » وأدخلتُ ذلك فيما سميته « فقه الأولويات » وهو يكمل فقهاً آخر ، هو « فقه الموازنات » والحركة الإسلامية المعاصرة أحوج ما تكون إليهما جميعاً .

قلت فى ذلك الكتاب :

« من فقه الأولويات : مراعاة النسب بين الأعمال والتكاليف الشرعية .

إنّ الإخلال بالنسب التى وضعها الإسلام للتكاليف الشرعية يُحدث ضرراً بليغاً بالدين والحياة .

إن العقيدة فى الإسلام مُقَدَّمة على العمل ، لأنها الأساس ، والأعمال هى البناء ، ولا بناء بغير أساس .

وبعد العقيدة تأتى الأعمال وهى متفاوتة تفاوتاً بعيداً ، وقد جاء فى الحديث الصحيح : « الإيمان بِضْعٌ وسبعون شُعبة ، أعلاها : لا إله إلاّ الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » [1] .

والقرآن يُبيِّن لنا أن الأعمال تتفاضل عند الله ، وليست فى درجة واحدة ، يقول تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ ﴾ [2] .

ولهذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن جنس أعمال الجهاد أفضل من جنس أعمال الحج .

بل ذكر فقهاء الحنابلة وغيرهم أن الجهاد أفضل ما يُتَطوَّع به من أعمال البدن.

وفى فضل الجهاد جاءت أحاديث كثيرة منها ما رواه أبو ذر رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، أى الأعمال أفضل ؟ قال : « الإيمان بالله والجهاد فى سبيل الله » [3] ..

---

(١) رواه مسلم وأصحاب السنن عن أبى هريرة كما فى الجامع الصغير .

(٢) التوبة : ١٩ – ٢٠ .

(٣) متفق عليه عن أبى ذر .

وقال صلى الله عليه وسلم لمن أراد الاعتزال للعبادة : « لا تفعل ، فإن مقام أحدكم في سبيل الله تعالى أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً » [1] .

وفي فضل الرباط جاء حديث سلمان مرفوعاً : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذى كان يعمل ، وأُجْرِىَ عليه رزقه ، وأمِنَ من الفتّان » (رواه مسلم) .

وهذا ما جعل إماماً مثل عبد الله بن المبارك وهو فى أرض الرباط يكتب إلى صديقه الفضيل بن عِياض الزاهد العابد ، وهو ينتقل بين الحرمين مكة والمدينة متعبداً :

يا عـابدَ الحرمين لو أبصرتنا	لعلمتَ أنك بالعبادة تلعبُ !
مَن كان يخضب خده بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضبُ !

... إلى آخر الأبيات [2] .

ومن المقرر فقهاً : أن النافلة لا يجوز تقديمها على الفريضة ، وأن فرض العين مقدَّم على فرض الكفاية ، وأن فرض الكفاية - الذى لم يقم به أحد أو عدد يكفى - مقدَّم على فرض الكفاية الذى قام به مَن يكفى ويسد الثغرة . وأن فرض العين المتعلق بالجماعة والأمة مقدَّم على فرض العين المتعلق بحقوق الأفراد ، وأن الواجب المحدَّد الوقت ، والذى جاء وقته بالفعل ، مقدَّم على الواجب الموسَّع فى وقته .

ومن المقرر كذلك أن المصالح المقرَّرة شرعاً متفاوتة فيما بينها ، فالمصالح الضرورية مقدَّمة على الحاجية والتحسينية ، والمصالح الحاجية مقدَّمة على

---

(١) رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن ، والحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم . وقد مضى بتمامه ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) ذكر القصة الحافظ ابن كثير فى تفسير آخر آية من سورة آل عمران ، كما ذكرها غيره من المؤرخين .

التحسينية ، والمصالح المتعلقة بمصالح الأمة وحاجاتها أولى بالرعاية من المصالح المتعلقة بالأفراد عند التعارض ، وهنا نجد فقه الموازنات يلتقى فقه الأولويات .

إنْ آفة كثير من فصائل الصَحْوَة الإسلامية هى غياب فقه الأولويات عنها ، فكثيراً ما تهتم بالفروع قبل الأصول ، وبالجزئيات قبل الكليات ، وبالمختلف فيه قبل المتفق عليه ، وتسأل عن دم البعوض ، ودم الحسين مهراق ، وتُثير معركة من أجل نافلة ، وقد ضيَّع الناس الفرائض ، أو من أجل شكل أو هيئة ، دون اعتبار للمضمون .

وهذا هو الحال عند عموم المسلمين ، أرى الملايين يعتمرون تطوعاً كل عام فى رمضان وغيره ، ومنهم مَن يحج للمرة العاشرة أو العشرين ، ولو جُمِعَ ما ينفقه هؤلاء فى هذه النوافل لبلغ آلاف الملايين ، ونحن نلهث من عدة سنوات لتجميع ألف مليون دولار للهيئة الخيرية الإسلامية ، فلم نحصل على عُشر المبلغ ، ولا نصف عُشره ، ولا ثُلثه ! ولو قلتَ لهؤلاء المتطوعين بالعُمرة أو الحج : ادفعوا ما تنفقونه فى رحلتكم التطوعية لمقاومة التنصير أو الشيوعية فى آسيا وإفريقيا ، أو المجاعات هنا وهناك ، ما استجابوا لك ، وهذه آفة قديمة شكا منها أطباء القلوب [1] .

وإنَّ من فقه الأولويات : أن نعرف أى القضايا أولى بالاهتمام فتُعطى من الجهد والوقت أكثر مما يُعطى غيرها .

وقد أنكر الإمام الغزالى فى « الإحياء » على بعض فرق العُبَّاد والمتصوفة غرورهم ببعض أنواع العبادة ، دون مراعاة لمراتب الأعمال والطاعات ، ومنزلة بعضها من بعض ، من حيث إن فيها النافلة والفريضة ، وفرض الكفاية وفرض

---

(١) انظر قصة بشر الحافى مع أحدهم فى (الإحياء جـ ٣ ص ٤٠٩) .

العين ، والفرض المحدَّد وقته ، والفرض الموسَّع فيه ، والفرض المتعلق بالفرد ، والفرض المتعلق بالأمة .

ومن الكلمات المعبِّرة هنا للغزالى رضى اللّه عنه : ترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور [1] .

إن شمول الإسلام لكل جوانب الحياة ، لا يعنى تضييع النِّسب بينها ، والإخلال بمراتبها الشرعية ، كما جاء بها الإسلام . وهذا هو الفقه حقاً « ومن يُرد اللّه به خيراً يفقهه فى الدين » .

* * *

(١) انظر : إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ١ وكتابنا : « الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه » ص ٨٧ - ٩٠ ط . دار الوفاء - المنصورة - مصر .

ملحق :

إسلام الإخوان المسلمين

يقول الإمام الشهيد حسن البنا فى « رسالة المؤتمر الخامس » :

« اسمحوا لى أيها السادة أن أستخدم هذا التعبير ، ولست أعنى به أن للإخوان المسلمين إسلاماً جديداً غير الإسلام الذى جاء به سيدنا محمد ﷺ عن ربه ، وإنما أعنى أن كثيراً من المسلمين فى كثير من العصور خلعوا على الإسلام نعوتاً وأوصافاً وحدوداً ورسوماً من عند أنفسهم ، واستخدموا مرونته وسعته استخداماً ضاراً - مع أنها لم تكن إلا للحكمة السامية - فاختلفوا فى معنى الإسلام اختلافاً عظيماً ، وانطبعت للإسلام فى نفوس أبنائه صور عدة تُقرِّب أو تُبعِّد أو تنطبق على الإسلام الأول الذى مثَّله رسول الله ﷺ وأصحابه خير تمثيل .

فمن الناس مَن لا يرى الإسلام شيئاً غير حدود العبادة الظاهرة فإن أدَّاها أو رأى مَن يؤديها اطمأن إلى ذلك ورضى به وحسبه قد وصل إلى لُبِّ الإسلام ، وذلك هو المعنى الشائع عند عامة المسلمين .

ومن الناس مَن لا يرى الإسلام إلا الخُلُق الفاضل والروحانية الفيَّاضة ، والغذاء الفلسفى الشهى للعقل والروح ، والبُعد بهما عن أدران المادة الطاغية الظالمة .

ومنهم مَن يقف إسلامه عند حد الإعجاب بهذه المعانى الحيوية العملية فى الإسلام فلا يتطلب النظر إلى غيرها ولا يعجبه التفكير فى سواها .

ومنهم مَن يرى الإسلام نوعاً من العقائد الموروثة والأعمال التقليدية التى لا غناء فيها ولا تقدم معها ، فهو متبرم بالإسلام وبكل ما يتصل بالإسلام ،

وتجد هذا المعنى واضحاً فى نفوس كثير من الذين ثُقفوا ثقافة أجنبية ، ولم تُتح لهم فرص حسن الاتصال بالحقائق الإسلامية ، فهم لم يعرفوا عن الإسلام شيئاً أصلاً، أو عرفوه صورة مشوهة بمخالطة مَن لم يحسنوا تمثيله من المسلمين .

وتحت هذه الأقسام جميعاً تندرج أقسام أخرى يختلف نظر كل منها إلى الإسلام عن نظر الآخر قليلاً أو كثيراً ، وقليل من الناس أدرك الإسلام صورة كاملة واضحة تنتظم هذه المعانى جميعاً .

هذه الصور المتعددة للإسلام الواحد فى نفوس الناس جعلتهم يختلفون اختلافاً بيناً فى فهم الإخوان المسلمين وتصور فكرتهم .

فمن الناس مَن يتصور الإخوان المسلمين جماعة وعظية إرشادية كل همها أن تقدّم للناس العظات ، فتزهّدهم فى الدنيا وتذكّرهم الآخرة .

ومنهم مَن يتصور الإخوان المسلمين طريقة صوفية تعنى بتعليم الناس ضروب الذكر وفنون العبادة وما يتبع ذلك من تجرد وزهادة .

ومنهم مَن يظنهم جماعة نظرية فقهية كل همها أن تقف عند طائفة من الأحكام تجادل فيها وتناضل عنها ، وتحمل الناس عليها ، وتخاصم أو تسالم مَن لم يُسلّم بها معها .

وقليل من الناس خالطوا الإخوان المسلمين وامتزجوا بهم ، ولم يقفوا عند حدود السماع ، ولم يخلعوا على الإخوان المسلمين إسلاماً يتصورونه هم ، فعرفوا حقيقتهم وأدركوا كل شئ عن دعوتهم علماً وعملاً .

ولهذا أحببتُ أن أتحدث لحضراتكم فى إيجاز عن معنى الإسلام وصورته الماثلة فى نفوس الإخوان المسلمين ، حتى يكون الأساس الذى ندعو إليه ونعتز بالانتساب له والاستمداد منه واضحاً جلياً :

١ - نحن نعتقد أن أحكام الإسلام وتعاليمه شاملة تنتظم شؤون الناس فى الدنيا وفى الآخرة ، وأن الذين يظنون أن هذه التعاليم إنما تتناول الناحية العبادية أو الروحية دون غيرها من النواحى مخطئون فى هذا الظن ، فالإسلام عقيدة وعبادة ، ووطن وجنسية ، ودين ودولة ، وروحانية وعمل ، ومصحف وسيف. والقرآن الكريم ينطق بذلك كله ويعتبره من لب الإسلام ومن صميمه ويوصى بالإحسان فيه جميعه ، وإلى هذا تشير الآية الكريمة : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (١).

وإنك تقرأ فى القرآن وفى الصلاة إن شئتَ قول الله تبارك وتعالى فى العقيدة والعبادة : ﴿ وَمَا أُمِرُواْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُواْ الزَّكَاةَ ، وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ (٢) .

وتقرأ قوله تعالى فى الحكم والقضاء والسياسة : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ (٣) .

وتقرأ قوله تعالى فى الديْن وفى التجارة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً ، فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ، وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ، فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُواْ ، وَلَا تَسْأَمُواْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً

(١) القصص : ٧٧ (٢) البينة : ٥ (٣) النساء : ٦٥

أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ، ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا ، إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ، وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ (١) .

وتقرأ قوله تعالى فى الجهاد والقتال والغزو : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ، وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ (٢) ... إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة البارعة فى هذه الأغراض نفسها وفى غيرها من الآداب العامة وشؤون الاجتماع .

وهكذا اتصل الإخوان بكتاب الله واستلهموه واسترشدوه فأيقنوا أن الإسلام هو هذا المعنى الكلى الشامل ، وأنه يجب أن يهيمن على كل شؤون الحياة وأن تصطبغ جميعها به وأن تنزل على حكمه وأن تساير قواعده وتعاليمه وتستمد منها ما دامت الأمة تريد أن تكون مسلمة إسلاماً صحيحاً ، أما إذا أسلمت فى عبادتها وقلدت غير المسلمين فى بقية شؤونها ، فهى أمة ناقصة الإسلام تضاهئ الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) البقرة : ٢٨٢ (٢) النساء : ١٠٢ (٣) البقرة : ٨٥

٢ - إلى جانب هذا يعتقد الإخوان أن أساس التعاليم الإسلامية ومعينها هو كتاب الله تبارك وتعالى وسُنَّة رسوله ﷺ ، اللذان إن تمسكت بهما الأمة فلن تضل أبداً ؛ وأن كثيراً من الآراء والعلوم التى اتصلت بالإسلام وتلونت بلونه تحمل لون العصور التى أوجدتها والشعوب التى عاصرتها . ولهذا يجب أن تستقى النُظم الإسلامية التى تُحمل عليها الأمة من هذا المعين الصافى معين السهولة الأولى ، وأن نفهم الإسلام كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السَلف الصالح رضوان الله عليهم ، وأن نقف عند هذه الحدود الربانية النبوية حتى لا نقيِّد أنفسنا بغير ما يقيِّدنا الله به ، ولا نلزم عصرنا لون عصر لا يتفق معه ، والإسلام دين البَشرية جميعاً .

٣ - وإلى جانب هذا أيضاً يعتقد الإخوان المسلمون أن الإسلام كدين عام انتظم كل شؤون الحياة فى كل الشعوب والأمم لكل الأعصار والأزمان ، جاء أكمل وأسمى من أن يعرض لجزئيات هذه الحياة وخصوصاً فى الأمور الدنيوية البحتة ، فهو إنما يضع القواعد الكلية فى كل شأن من هذه الشؤون ، ويرشد الناس إلى الطريق العملية للتطبيق عليها والسير فى حدودها .

ولضمان الحق والصواب فى هذا التطبيق أو تحرِّيهما على الأقل ، عنى الإسلام عناية تامة بعلاج النفس الإنسانية وهى مصدر النُظم ومادة التفكير والتصوير والتشكل ، فوصف لها من الأدوية الناجعة ما يطهرها من الهوى ويغسلها من أدران الغرض والغاية ويهديها إلى الكمال والفضيلة ، ويزجرها عن الجور والقصور والعدوان ؛ وإذا استقامت النفس وصفت فقد أصبح كل ما يصدر عنها صالحاً جميلاً . يقولون إن العدل ليس فى نص القانون ولكنه فى نفس القاضى ، وقد تأتى بالقانون الكامل العادل إلى القاضى ذى الهوى والغاية فيطبقه تطبيقاً جائراً لا عدل معه ، وقد تأتى بالقانون الناقص والجائر إلى القاضى الفاضل العادل البعيد عن الأهواء والغايات فيطبقه تطبيقاً فاضلاً عادلاً

فيه كل الخير والبِّر والرحمة والإنصاف . ومن هنا كانت النفس الإنسانية محل عناية كبرى فى كتاب الله ، وكانت النفوس الأولى التى صاغها هذا الإسلام مثال الكمال الإنسانى ، ولهذا كله كانت طبيعة الإسلام تساير العصور والأمم ، وتتسع لكل الأغراض والمطالب ، ولهذا أيضاً كان الإسلام لا يأبى أبداً الاستفادة من كل نظام صالح لا يتعارض مع قواعده الكلية وأُصوله العامة .

لا أحب أيها السادة أن أسترسل فى هذا البيان فذلك باب واسع وحسبنا هذه الإلمامة الموجزة تلقى ضوءاً على هذا المعنى العام للفكرة الإسلامية فى نفوس الإخوان المسلمين .

* * *

فكرة الإخوان المسلمين تضم كل المعانى الإصلاحية

كا من نتيجة هذا الفهم العام الشامل للإسلام عند الإخوان المسلمين أن شملت فكرتهم كل نواحى الإصلاح فى الأمة ، وتمثلت فيها كل عناصر غيرها من الفكر الإصلاحية ، وأصبح كل مصلح مخلص غيور يجد فيها أمنيته ، والتقت عندها آمال محبى الإصلاح الذين عرفوها وفهموا مراميها ، وتستطيع أن تقول ولا حرج عليك ، إن الإخوان المسلمين :

(١) دعوة سَلَفيّة : لأنهم يدعون إلى العودة بالإسلام إلى معينه الصافى من كتاب الله وسُنّة رسوله .

(٢) وطريقة سُنّيّة : لأنهم يحملون أنفسهم على العمل بالسُنّة المطهَّرة فى كل شئ ، وبخاصة فى العقائد والعبادات ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً .

(٣) وحقيقة صوفية : لأنهم يعلمون أن أساس الخير طهارة النفس ، ونقاء القلب ، والمواظبة على العمل ، والإعراض عن الخلق ، والحُب فى الله ، والارتباط على الخير .

(٤) وهيئة سياسية : لأنهم يطالبون بإصلاح الحكم فى الداخل وتعديل النظر فى صلة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم فى الخارج ، وتربية الشعب على العزة والكرامة والحرص على قوميته إلى أبعد حد .

(٥) وجماعة رياضية : لأنهم يعنون بجسومهم ، ويعلمون أنَّ المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف ، وأن النبى ﷺ يقول : « إن لبدنك عليك حقاً » [١] ، وأن تكاليف الإسلام كلها لا يمكن أن تؤدى كاملة صحيحة إلا بالجسم القوى ، فالصلاة والصوم والحج والزكاة لا بد لها من جسم يحتمل أعباء الكسب والعمل والكفاح فى طلب الرزق ، ولأنهم تبعاً لذلك يعنون بتشكيلاتهم وفِرَقهم الرياضية عناية تضارع - وربما فاقت - كثيراً من الأندية المتخصصة بالرياضة البدنية وحدها .

(٦) ورابطة علمية ثقافية : لأن الإسلام يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ولأن أندية الإخوان هى فى الواقع مدارس للتعليم والتثقيف ومعاهد لتربية الجسم والعقل والروح .

(٧) وشركة اقتصادية : لأن الإسلام يعنى بتدبير المال وكسبه من وجهه وهو الذى يقول نبيه ﷺ : « نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح » [٢] ، ويقول : « مَن أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له » [٣] ، « إنَّ الله يحب المؤمن المحترف » [٤] .

(٨) وفكرة اجتماعية : لأنهم يعنون بأدواء المجتمع الإسلامى ويحاولون الوصول إلى طرق علاجها وشفاء الأمة منها .

---

(١) متفق عليه عن عبد الله بن عمرو .

(٢) رواه أحمد والحاكم وصححه عن عمرو بن العاص .

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس وإسناده ضعيف . كما فى « التيسير » للمناوى

(٤) رواه الحكيم الترمذى والطبرانى والبيهقى فى الشُعَب عن ابن عمر وهو ضعيف كما فى « التيسير » .

وهكذا نرى أن شمول معنى الإسلام قد أكسب فكرتنا شمولاً لكل مناحى الإصلاح ، ووجّه نشاط الإخوان إلى كل هذه النواحى ، وهم فى الوقت الذى يتجه فيه غيرهم إلى ناحية واحدة دون غيرها يتجهون إليها جميعاً ويعلمون أن الإسلام يطالبهم بها جميعاً .

ومن هنا كان كثير من مظاهر أعمال الإخوان يبدو أمام الناس متناقضاً وما هو بمتناقض .

فقد يرى الناس الأخ المسلم فى المحراب خاشعاً متبتلاً يبكى ويتذلل ، وبعد قليل يكون هو بعينه واعظاً مدرساً يقرع الآذان بزواجر الوعظ ، وبعد قليل تراه نفسه رياضياً أنيقاً يرمى بالكرة أو يدرب على العدو أو يمارس السباحة ، وبعد فترة يكون هو بعينه فى متجره أو معمله يزاول صناعته فى أمانة وفى إخلاص. هذه مظاهر قد يراها الناس متنافرة لا يلتئم بعضها ببعض ، ولو علموا أنها جميعاً يجمعها الإسلام ويأمر بها الإسلام ويحضُّ عليها الإسلام لتحققوا فيها مظاهر الالتئام ومعانى الانسجام ، ومع هذا الشمول فقد اجتنب الإخوان كل مايؤخذ على هذه النواحى من المآخذ ومواطن النقد والتقصير .

كما اجتنبوا التعصب للألقاب إذ جمعهم الإسلام الجامع حول لقب واحد هو « الإخوان المسلمون » (انتهى من رسالة المؤتمر الخامس للإمام حسن البنا) .

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

* * *

كتب للمؤلف

- الحلال والحرام فى الإسلام .
- العبادة فى الإسلام .
- الإيمان و الحياة .
- مشكلة الفقر .. وكيف عالجها الإسلام .
- فقه الزكاة (جزآن) .

* سلسلة حتمية الحل الإسلامى :

(١) الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا .
(٢) الحل الإسلامى .. فريضة وضرورة .
(٣) بيِّنات الحل الإسلامى .. وشُبهات العلمانيين والمتغربين .
(٤) أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة .

- ثقافة الداعية .
- الرسول والعلم .
- الوقت فى حياة المسلم .
- الصبر فى القرآن .
- غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى .
- التربية الإسلامية ، ومدرسة حسن البنا .
- ظاهرة الغلو فى التكفير .
- الصحوة الإسلامية بين الجحود و التطرف .
- الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى .
- الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم .
- من أجل صحوة راشدة .

- الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه .
- أين الخلل .
- جيل النصر المنشود .
- رسالة الأزهر بين الأمس .. واليوم .. والغد .
- درس النكبة الثانية .. لماذا انهزمنا وكيف ننتصر .

* سلسلة عقائد الإسلام :
(١) وجود الله .
(٢) حقيقة التوحيد .

- نساء مؤمنات .
- الناس والحق .
- عالِم و طاغية (مسرحية) .
- نفحات و لفحات .
- يوسف الصِدِّيق { مسرحية شعرية } .
- الدين فى عصر العلم .
- الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه .
- قضايا معاصرة على بساط البحث .
- قطوف دانية من الكتاب والسُنَّة .
- الخصائص العامة للإسلام .
- المنتقى من الترغيب والترهيب (جزآن) .
- فتاوى معاصره (جـ ١) .
- الفتوى بين الانضباط والتسيب .
- شريعة الإسلام .
- الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية .

- بيع المرابحة للآمر بالشراء كما تجريه المصارف الإسلامية .
- فوائد البنوك هى الربا الحرام .
- الفقه الإسلامى بين الأصالة والتجديد .
- عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية .
- كيف نتعامل مع السُّنَّة .
- مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية
- المدخل لدراسة السُّنَّة النبوية .
- تيسير الفقه .. فقه الصيام .

* سلسلة نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام :

(١) شمول الإسلام .

* * *

رقم الإيداع ١٩٢٩ / ٩٥
I. S. B. N 977 - 225 - 067 - 5

طبع بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢

كتب للمؤلف

١ - الحلال والحرام فى الإسلام .
٢ - الإيمان والحياة .
٣ - الخصائص العامة للإسلام .
٤ - العبادة فى الإسلام .
٥ - ثقافة الداعية
٦ - فقه الزكاة (جزءان)

* سلسلة حتمية الحل الإسلامى

٧ - «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا».
٨ - « الحل الإسلامى .. فريضة وضرورة »
٩ - « بينات الحل الإسلامى .. وشبهات العلمانيين والمتغربين » .
١٠ - « أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة » .
١١ - مشكلة الفقر ، وكيف عالجها الإسلام .
١٢ - بيع المرابحة للآمر بالشراء .. كما تجريه المصارف الإسلامية .
١٣ - الصبر فى القرآن .
١٤ - غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى .
١٥ - التربية الإسلامية ، ومدرسة حسن البنا
١٦ - رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد .
١٧ - جيل النصر المنشود .
١٨ - وجود الله .
١٩ - حقيقة التوحيد .
٢٠ - نساء مؤمنات .
٢١ - ظاهرة الغلو فى التكفير .
٢٢ - الناس والحق .
٢٣ - درس النكبة الثانية .
٢٤ - عالم وطاغية .
٢٥ - مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية .
٢٦ - الفقه الإسلامى بين الأصالة والتجديد .
٢٧ عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية .
٢٨ - الوقت فى حياة المسلم .
٢٩ - أين الخلل ؟
٣٠ - الرسول والعلم .
٣١ - نفحات ولفحات « ديوان شعر » .
٣٢ - الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه .
٣٣ - فتاوى معاصرة (جزءان)
٣٤ - شريعة الإسلام .
٣٥ الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف
٣٦ - قضايا معاصرة على بساط البحث
٣٧ - الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية .
٣٨ - المنتقى من الترغيب والترهيب (جزآن) .
٣٩ - الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى .
٤٠ - الفتوى بين الانضباط والتسيب .
٤١ - من أجل صحوة راشدة
٤٢ - الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه
٤٣ - الدين فى عصر العلم .
٤٤ - فوائد البنوك هى الربا الحرام .
٤٥ - كيف نتعامل مع السُّنّة .
٤٦ - الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم .
٤٧ - تيسير الفقه . فقه الصيام
٤٨ - لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام .
٤٩ المدخل لدراسة السنة النبوية

* سلسلة نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام :

٥٠ - (١) شمول الإسلام .
٥١ (٢) المرجعية العليا فى الإسلام .
٥٢ - (٣) موقف الإسلام من الإلهام والكشف .
٥٣ - يوسف الصديق « مسرحية شعرية »
٥٤ - قطوف دانية من الكتاب والسنة
٥٥ - الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة .
٥٦ - المسلمون قادمون « ديوان شعر »
٥٧ - محاضرات الدكتور القرضاوى .
٥٨ - ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده .
٥٩ - دور القيم والأخلاق فى الاقتصاد الإسلامى
٦٠ - السُّنّة .. مصدراً للمعرفة والحضارة.
٦١ - خطب الشيخ القرضاوى جـ ١.
٦٢ دروس فى التفسير (تفسير سورة الرعد)
٦٣ - فى فقه الأولويات (دراسة جديدة فى ضوء القرآن والسُّنّة)
٦٤ - الإسلام حضارة الغد .
٦٥ - الأمة الإسلامية .. حقيقة لا وهم